

سَرَحُ

عَقِيدَةُ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ الْقَيْرَوَانِيِّ

تَأَلَّفَ

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ

أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبُخَّيْمِيِّ



شرح

عقيدة ابن أبي زيد القيرواني

جميع حقوق الطبع محفوظة

لـ «دار المنهاج»

الطبعة الثانية

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



رقم الإيداع: ١٤٨٢٦ / ٢٠٠٩م



٨١ شارع الهادي الحمدي - من أحمد عرابي - مساكن عين شمس - القاهرة

جوال : ٠٠٢ / ٠١٨٨٨٨ ٤٠ ٧٨ - ٠٠٢ / ٠١٨٨٨٨ ٤٠ ٨١

٠٠٢ / ٠١٢ ٤٠ ٧٣ ٩٧٤ - ٠٠٢ / ٠١٨٨٨٨ ٤١ ١٣

E-Mail : daralmenhaj@hotmail.com / daralminhaj@yahoo.com

شرح
عقيدة ابن أبي زيد القيرواني

تأليف
فضيلة الشيخ العلامة
أحمد بن يحيى النجاشي

المكتبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة مختصرة لابن أبي زيد القيرواني

* اسمه ونسبه وكنيته:

قال الذهبي: «هو الإمام العلامة الفقيه القدوة عالم أهل المغرب، أبو محمد عبد الله بن (أبي زيد) عبد الرحمن النفزي القيرواني المالكي».

* مولده:

ولد بالقيروان سنة ٣١٠ هـ.

* نشأته:

نشأ منذ صغره على طلب العلم، وحاز رياسة الدنيا والدين، كما قال القاضي عياض، ورحل إليه من الأقطار، ونجب أصحابه، وكثُرُ الآخذون عنه، وهو الذي لخص المذهب المالكي، وملا البلاد من تواليه حتى إنه كان يُعد مالكا الصغير.

* عقيدته:

قال الذهبي: «كان رَحِمَهُ اللَّهُ على طريقة السلف في الأصول لا يدري الكلام ولا يتأول، فنسأل الله التوفيق».

* شيوخه:

تتلمذ على جَمِّ غفير من العلماء والفقهاء، ونذكر بعضاً ممن أخذ عنه، أو سمع منهم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، فقد أخذ عن:

- محمد بن مسرور الحجام.

- محمد بن الفتح.

- الحسن بن نصر البسوسي.

وخلق كثير.

* تلاميذه:

لا شك أن من تخرج على الجَمِّ الغفير من العلماء، وكانت لديه العقلية المفتحة أن يتخرج على يديه الكَمُّ الهائل من العلماء وطلبة العلم، فممن حظوا بشرف الدراسة على يديه:

- الفقيه عبد الرحيم بن العجوز.

- عبد الله بن غالب السبتي.

- عبد الله بن الوليد بن سعد الأنصاري.

- أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن الخولاني.

وخلق كثير.

* تصانيفه:

ملاً رَحِمَهُ اللهُ البلاد من توافقه فقد صنف:

- كتاب النوادر والزيادات في نحو المائة جزء.

- واختصر المدونة، وعلى هذين الكتابين المعول في التفقه بالمغرب.

- كتاب الاقتداء بمذهب مالك.
- كتاب إعجاز القرآن.
- رسالته في الرد على القدرية.
- مقدمة رسالته في التوحيد التي هي ضمن كتابه: الرسالة في فقه مذهب الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ، والتي تعتبر مقدمة في تصنيفه للفقه المالكي، وقد قام شيخنا -حفظه الله، ودفع عنه كل سوء ومكروه- بشرحها.
- إلى غير ذلك من التواليف العديدة، التي لا يمكن حصرها، وقيل: إنه وضع رسالته المشهورة، وله سبع عشرة سنة، وكان مع عظمته في العلم والعمل ذا بر وإيثار وإنفاق على الطلبة وإحسان.

* وفاته:

قال الحبال: «توفي رَحِمَهُ اللهُ في النصف من شعبان سنة ٣٨٩هـ، ولما توفي رثاه بعض الشعراء».

* ترجمته:

انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٠)، تذكرة الحفاظ (٣/ ١٠٢١)، شذرات الذهب (٣/ ١٣١)، معجم المؤلفين (٦/ ٧٣)، الديباج المذهب (ص ١٣٦-١٣٨).



نص مقدمة مؤلف الرسالة رَحِمَهُ اللهُ

قال أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني - رضي الله عنه وأرضاه -:
 الحمد لله الذي ابتدأ الإنسان بنعمته، وصوره في الأرحام بحكمته، وأبرزه
 إلى رفقه وما يسره له من رزقه، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه
 عظيمًا، ونبيه بآثار صنعته، وأعذر إليه على ألسنة المرسلين الخيرة من خلقه
 فهدى من وفقه بفضله، وأضل من خذله بعدله، ويسر المؤمنين ليسرى، وشرح
 صدورهم للذكرى، فأمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلوبهم مخلصين، وبما أوتتهم
 به رسله وكتبه عاملين، وتعلموا ما علمهم، ووقفوا عند ما حد لهم، واستغنوا بما
 أحل لهم عما حرم عليهم.

✽ أما بعد:

أعانا الله وإياك على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه، فإنك سألتني
 أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة مما تنطق به الألسنة، وتعتقد
 القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكداها
 ونوافلها ورغائبها، وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه على
 مذهب الإمام مالك بن أنس - رحمه الله تعالى - وطريقته، مع ما سهّل سبيل ما أشكل
 من ذلك من تفسير الراسخين، وبيان المتفقهين، لما رغبت فيه من تعليم ذلك
 للولدان كما تعلمهم حروف القرآن، ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه

ما تُرَجَى لهم بركته وتُحَمَّد لهم عاقبته، فأجبتك إلى ذلك، لما رجوته لنفسي ولك من ثواب من علّم دين الله أو دعا إليه.

واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه، وأولى ما عني به الناصحون، ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها، وتنبيههم على معالم الديانة، وحدود الشريعة؛ ليراضوا عليها، وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم، وتعمل به جوارحهم؛ فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفى غضب الله، وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر.

وقد مثلت لك من ذلك ما ينتفعون - إن شاء الله - بحفظه، ويشرفون بعلمه، ويسعدون باعتقاده والعمل به، وقد جاء أن يؤمروا بالصلاة لسبع سنين، ويضربوا عليها لعشر، ويفرق بينهم في المضاجع، فكذلك ينبغي أن يعلموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل قبل بلوغهم ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكن ذلك من قلوبهم، وسكنت إليه أنفسهم، وأنست بما يعملون به من ذلك جوارحهم.

وقد فرض الله ﷻ على القلب عملاً من الاعتقادات وعلى الجوارح الظاهرة عملاً من الطاعات.

وسأفصل لك ما شرطت لك ذكره باباً باباً ليقرب من فهم متعلميه - إن شاء الله تعالى -، وإياه نستخير وبه نستعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.



باب: ما تنطق به الألسنة وتعتقد الأفئدة من واجب أمور الديانات

من ذلك: الإيمان بالقلب، والنطق باللسان أن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له. ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء، ولا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون، يعتبر المتفكرون بآياته، ولا يتفكرون في ماهية ذاته، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم.

العالم الخبير المدبر القدير السميع البصير العلي الكبير، وأنه فوق عرشه المجيد بذاته، وهو في كل مكان بعلمه.

خلق الإنسان، ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وله الأسماء الحسنی والصفات العلا، لم يزل بجميع صفاته وأسمائه متصفاً، تعالى أن تكون صفاته مخلوقة، وأسماءه محدثة.

كلم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته لا خلق من خلقه، وتجلى للجبل فصار دكاً من جلاله، وأن القرآن كلام الله، ليس بمخلوق فييد، ولا صفة لمخلوق فينفد.

والإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وكل ذلك قد قدره الله ربنا، ومقادير الأمور بيده، ومصدرها عن قضائه، علم كل شيء قبل كونه فجرى على قدره،

لا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضاه وسبق علمه به: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المك: ١٤]. يضل من يشاء فيخذله بعدله، ويهدي من يشاء فيوفقه بفضلته، فكلٌ ميسر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره، من شقي أو سعيد.

تعالى الله أن يكون في ملكه ما لا يريد، أو يكون لأحد عنه غنى، أو يكون أحد من خلقه خالقاً لشيء، وأنه ما ثمَّ خالق إلا هو رب العباد ورب أعمالهم، والمقدّر لحركاتهم وآجالهم، الباعث الرسل إليهم لإقامة الحجة عليهم، ثم ختم الرسالة والندارة والنبوة بمحمد نبيه ﷺ فجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

وأنزل عليه كتابه الحكيم، وشرح به دينه القويم، وهدى به الصراط المستقيم. وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من يمت كما بدأهم يهودون. وأن الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات، وصفح لهم بالتوبة عن كبائر السيئات، وغفر لهم الصغائر باجتناّب الكبائر، وجعل من لم يتب من الكبائر صائراً إلى مشيئته: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ومن عاقبه بناره أخرجته منها بإيمانه فأدخله به جنته: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]. ويخرج منها بشفاعة النبي ﷺ من شفع له من أهل الكبائر من أمته.

وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه، وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم، وهي التي أهبط منها آدم نبيه وخليفته إلى أرضه بما سبق في سابق علمه، وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله، وجعلهم محجوبين عن رؤيته.

وأن الله - تبارك وتعالى - يجيء يوم القيامة: ﴿وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا﴾ [الفجر: ٢٢].
 لعرض الأمم وحسابها وعقوبتها وثوابها، وتوضع الموازين لوزن أعمال العباد: ﴿فَمَنْ
 ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]. ويؤتون صحائفهم بأعمالهم:
 فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا، ومن أوتي كتابه وراء ظهره
 فأولئك يصلون سعيرًا.

وأن الصراط حق يجوزه العباد بقدر أعمالهم، ف ناجون متفاوتون في سرعة
 النجاة عليه من نار جهنم، وقوم أوبقتهم فيها أعمالهم.
 والإيمان بحوض رسول الله ﷺ ترده أمته، لا يظمأ من شرب منه، ويزداد عنه
 من بدل وغير.

وأن الإيمان قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بزيادة
 الأعمال وينقص بنقصها، فيكون فيها النقص وبها الزيادة، ولا يكمل قول الإيمان
 إلا بالعمل.

ولا قول وعمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ونية إلا بموافقة السنة.

وأنه لا يكفر أحد بذنوب من أهل القبلة.

وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى
 يوم يبعثون، وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم الدين.

وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم ويسألون؛ ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ
 الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم، ولا يسقط شيء من ذلك عن علم
 ربهم، وأن ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه.

وأن خير القرون: القرن الذين رأوا رسول الله ﷺ وآمنوا به، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي - رضي الله عنهم أجمعين - .
والأى يذكر أحد من صحابة الرسول ﷺ إلا بأحسن ذكر، والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج، ويُظن بهم أحسن المذاهب.

والطاعة لأئمة المسلمين من ولاية أمورهم وعلمائهم، واتباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم، والاستغفار لهم، وترك المراء والجدال في الدين، وترك كل ما أحدثه المحدثون.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه وذريته وسلم تسليمًا كثيرًا.



نظم مقدمة الرسالة

للشيخ أحمد بن مشرف الأحسائي المالكي
المتوفى سنة ١٢٨٥ هـ - نقلاً من ديوانه (ص ١٧)

الحمد لله حمداً ليس منحصراً	على أياديه ما يخفى وما ظهراً
ثم الصلاة وتسليم المهيمن ما	هب الصباً فأدر العارض المطراً
على الذي شاد بنيان الهدى فسمما	وساد كل الورى فخراً وما افتخراً
نبينا أحمد الهادي وعثرته	وصحبه كل من آوى ومن نصره
وبعد فالعلم لم يظفر به أحد	إلا سماً وبأسباب العلأظفراً
لا سيما أصل علم الدين إن به	سعادة العبد والمنجى إذا حشراً

باب: ما تعتقده القلوب، وتنطق به الألسن

من واجب أمور الديانات

وأول الفرض إيمان الفؤاد كذا	نطق اللسان بما في الذكر قد سطرأ
أن الإله إله واحد صمد	فلا إله سوى من للأنام برا
رب السموات والأرضين ليس لنا	رب سواه تعالى من لنا فطرأ
وأنه مُوجد الأشياء أجمعها	بلا شريك ولا عون ولا وزراً
وهو المنزه عن ولد وصاحبة	ووالد وعن الأشباه والنظراً

لا يبلغن كُنْهَ وصف الله واصفه
وأنَّه أوَّلُ باقٍ فليس له
حيٌّ عليمٌ قديرٌ والكلام له
وأنَّ كرسيه والعرش قد وسعا
ولم يزل فوق ذاك العرش خالقنا
إنَّ العلوَّ به الأخبارُ قد وردتْ
فالله حق على الملك احتوى وعلى
والله بالعلم في كلِّ الأماكن لا
وأنَّ أوصافه ليست بمحدثة
وأنَّ تنزيله القرآن أجمعه
وحيٌّ تكلم مولانا القديم به
يتلى ويحمل حفظاً في الصدور كما
وأنَّ موسى كلِّم الله كلمه
فالله أسمع من غير واسطة
حتى رام أن يحظى برؤيته في محبته
إليك قال له الرحمن موعظة
فأنظر إلى الطور إن يثبت مكانته
حتى إذا ما تجلَّى ذو الجلال له
ولا يُحيط به علماً من افتكراً
بدءٌ ولا منتهى سبحان من قدراً
فردُّ سميعٌ بصيرٌ ما أراد جراً
كلَّ السموات والأرضين إذ كبراً
بذاته فاسأل الوحيين والفطراً
عن الرسول فتابع مَنْ روى وقرأ
العرش استوى وعن التكيف كن حذراً
يخفاه شيءٌ سميعٌ شاهدٌ ويرى
كذلك أسماؤه الحسنى لمن ذكراً
كلامه غيرُ خلق أعجز البشر
ولم يزل من صفات الله معتبراً
بالخط يثبته في الصحف من زبراً
إلهه فوق ذاك الطور إذ حضراً
من وصفه كلمات تحتوي عبراً
قال الكلیم: إلهي أسأل النظر
أننى ترانى ونورى يدهش البصرا
إذا رأى بعض أنوارى فسوف ترى
تصدع الطور من خوفٍ وما اضطبراً

فصل في الإيمان بالقدر خيره وشره

وبالقضاء وبالأقدار أجمعها	إيماننا واجب شرعاً كما ذكرنا
فكلُّ شيء قضاء الله في أزل	طراً وفي لوحه المحفوظ قد سطرنا
وكلُّ ما كان من همٍّ ومن فرح	ومن ضلالٍ ومن شكرٍ من شكرنا
فإنه من قضاء الله قدره	فلا تكن أنت ممن ينكر القدرنا
والله خالقُ أفعال العباد وما	يجري عليهم فعن أمر الإله جراً
ففي يديه مقادير الأمور وعن	قضائه كلُّ شيء في الوري صدرنا
فمن هدى فبمحض الفضل وفقه	ومن أضلَّ بعدل منه قد كفرنا
فليس في ملكه شيء يكون سوى	ما شاء الله نفعاً كان أو ضرراً

فصل في عذاب القبر وفتنته

ولم تَمُتْ قطُّ من نفسٍ وما قُتلت	من قبل إكمالها الرزق الذي قُدرنا
وكلُّ روح رسول الموت يقبضها	بإذن مولاه إذ تستكمل العُمُرنا
وكلُّ من مات مسئول ومفتتن	من حين يوضع مقبوراً ليختبرنا
وأن أرواح أصحاب السعادة في	جنات عدن كطير يعلق الشجرنا
لكنما الشهداء أحياء وأنفسهم	في جوف طير حسان تعجب النظرننا
وأنها في جنان الخلد سارحة	من كلِّ ما تشتهي تجني بها الثمرنا
وأن أرواح من يشقى معذبة	حتى تكون مع الجثمان في سقرنا

فصل: في البعث بعد الموت والجزاء

وَأَنْ نَفْخَةَ إِسْرَافِيلَ ثَانِيَةً
 كَمَا بَدَأَ خَلْقَهُمْ رَبِّي يَعِيدُهُمْ
 حَتَّىٰ إِذَا مَا دَعَا لِلْجَمْعِ صَارَخُهُ
 قَالَ الْإِلَهِ: قَفْوَهُمْ لِلسُّؤَالِ لَكِي
 فَيُوقِفُونَ أَلُوفًا مِنْ سَنِينِهِمْ
 وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْأَمَلَاكُ قَاطِبَةً
 وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِالنَّارِ تَسْحُبُهَا
 لَهَا زَفِيرٌ شَدِيدٌ مِنْ تَغْيِظِهَا
 وَيُرْسِلُ اللَّهُ صَحْفَ الْخَلْقِ حَاوِيَةً
 فَمَنْ تَلَقَّتهُ بِالْيَمَنِى صَحِيفَتُهُ
 وَمَنْ يَكُنْ بِالْيَدِ الْيَسْرَى تَنَاوُلُهَا
 وَوَزَنُ أَعْمَالِهِمْ حَقٌّ فَإِنْ ثَقُلَتْ
 وَأَنَّ بِالْمِثْلِ تُجْزَى السَّيِّئَاتِ كَمَا
 وَكُلُّ ذَنْبٍ سِوَى الْإِشْرَاقِ يَغْفِرُهُ
 وَجَنَّةُ الْخُلْدِ لَا تَفْنَى وَسَاكِنُهَا
 أَعَدَّهَا اللَّهُ دَارًا لِلْخُلُودِ لِمَنْ
 وَيَنْظُرُونَ إِلَىٰ وَجْهِ الْإِلَهِ بِهَا
 فِي الصُّورِ حَقٌّ فَيَحْيَا كُلُّ مَنْ قُبِرَا
 سُبْحَانَ مَنْ أَنْشَأَ الْأَرْوَاحَ وَالصُّورَا
 وَكُلُّ مَيِّتٍ مِنَ الْأَمْوَاتِ قَدْ نَشَرَا
 يَقْتَضِ مَظْلُومُهُمْ مِمَّنْ لَهُ قَهْرَا
 وَالشَّمْسُ دَانِيَةٌ وَالرَّشْحُ قَدْ كَثُرَا
 لَهُمْ صُفُوفٌ أَحَاطَتْ بِالْوَرَى زُمَرَا
 خُزَّانُهَا فَأَهَالَتْ كُلَّ مَنْ نَظَرَا
 عَلَى الْعَصَاةِ وَتَرْمِي نَحْوَهُمْ شَرَرَا
 أَعْمَالُهُمْ كُلُّ شَيْءٍ جَلٌّ أَوْ صَغَرَا
 فَهُوَ السَّعِيدُ الَّذِي بِالْفَوْزِ قَدْ ظَفَرَا
 دَعَا ثَبُورًا وَلِلنَّيْرَانِ قَدْ حُشِرَا
 بِالْخَيْرِ فَازَ وَإِنْ خَفَّتْ فَقَدْ خَسِرَا
 يَكُونُ فِي الْحَسَنَاتِ الضَّعْفُ قَدْ وَفَرَا
 رَبِّي لِمَنْ شَاءَ وَلَيْسَ الشَّرْكُ مُغْتَفَرَا
 مُخْلَدٌ لَيْسَ يَخْشَى الْمَوْتَ وَالْكَبَرَا
 يَخْشَى الْإِلَهِ وَلِلنِّعَمَاءِ قَدْ شَكَرَا
 كَمَا يَرَى النَّاسُ شَمْسَ الظَّهْرِ وَالْقَمَرَا

كذلك النار لا تفتنى وساكنها
ولا يخلد فيها من يوحده
وكم ينجي إلهي بالشفاعة من
أعدّها الله مولانا لمن كفرًا
ولو بسفك دم المعصوم قد فجّرًا
خير البرية من عاصٍ بها سجرًا

فصل: في الإيمان بالحوض

وأن للمصطفى حوضًا مسافته
أحلى من العسل الصافي مذاقته
ولم يردّه سوى أتباع سنته
وكم يُنحّي ويُنفى كل مبتدع
وأن جسرًا على النيران يعبره
وأن إيماننا شرعًا حقيقته
وأن معصية الرّحمن تنقصه
وأن طاعة أولي الأمر واجبة
إلا إذا أمروا يومًا بمعصية
وأن أفضل قرن للذين رأوا
أعني الصحابة رهبان بليهم
وخيرهم من ولي منهم خلافته
والتابعون بإحسان لهم وكذا
وواجب ذكر كل من صحابته
فلا تخض في حروب بينهم وقعت
ما بين صنعا وبصرى هكذا ذكرًا
وأن كيزانه مثل النجوم تُرى
سيماهم: أن يرى التحجيل والغرًا
عن ورده ورجال أحدثوا الغيرًا
بسرعة من لمنهاج الهدى عبرًا
قصد وقول وفعل للذي أمرًا
كما يزيد بطاعات الذي شكرًا
من الهداة نجوم العلم والأمرًا
من المعاصي فيلغى أمرهم هدرًا
نبينا وبهم دين الهدى نُصرًا
وفي النهار لدى الهيكل ليوث شرى
والسبق في الفضل للصديق مع عمرًا
أتباع أتباعهم ممن قفى الأثرًا
بالخير والكف عما بينهم شجرًا
عن اجتهاد وكن إن خضت معتذرًا

والاقتداء بهم في الدين مفترض	وفهم لنا قدوة هم مقتفو الأثر
وترك ما أحدث الضلال فيه فكم	ضلالة تبعت والدين قد هجرا
إن الهدى ما هدى الهادي إليه وما	به الكتاب كتاب الله قد أمرا
فلا مرء وما في الدين من جدل	وهل يجادل إلا كل من كفرا
فهاك في مذهب الأسلاف قافية	نظما بديعا وجيز اللفظ مختصرا
يحيي مهمات باب في العقيدة من	رسالة ابن أبي زيد الذي اشتهرا
والحمد لله مولانا ونسأله	غفران ما قل من ذنب وما كثرا
ثم الصلاة على من عم بعثته	فأنذر الثقلين الجن والبشرا
ودينه نسخ الأديان أجمعها	وليس ينسخ ما دام الصفا وحررا
محمد خير كل العالمين به	ختم النبيين والرسل الكرام جرا
وليس من بعده يوحى إلى أحد	ومن أجاز فحل قتله هدر
والآل والصحب ما ناحت على فنن	ورقا وما غردت قمرية سحرا

شرح مقدمة مؤلف الرسالة

قال أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني - رحمه الله تعالى -: «الحمد لله الذي ابتدأ الإنسان بنعمته، وصوره في الأرحام بحكمته».

* الشرح:

لقد امتن الله على الإنسان بخلقه له، وتعليمه إياه، فقال سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ ۝۱ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝۲ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝۳ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝۴﴾ [الرحمن: ١-٤].
وقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

فدلت هذه الآيات على عناية الله بهذا الإنسان، ولطفه به، ورحمته له؛ حيث ابتدأ خلقه في الرحم وصوره على أحسن صورة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].

وقال سبحانه: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝۴ ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝۵ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤-٦].

ففي هذه الآيات إخبار من الله ﷻ بتصويره للكائن الإنساني، وأنه خلقه في أحسن صورة، وجعله في أفضل هيئة.

* قوله: «وأبرزه إلى رفقه».

* الشرح:

يعني: أن الإنسان يُخلق ضعيفاً، فجُبل أهله على الرحمة به، والرفق به.

* * * * *

* ثم قال: «وما يسره له من رزقه».

* الشرح:

فهو يرزقه باللبن من حلمة الثدي، وبعد أن يشتد ويخرج له الأسنان أعطاه رزقاً آخر يليق بحاله، وهو الطعام الذي يعيش عليه أمثاله.

* * * * *

* ثم قال: «وعلمه ما لم يكن يعلم».

* الشرح: وقد أشرنا فيما سبق على الآيات الدالة على ذلك، ومن ذلك

أيضاً قوله -جل وعلا-: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

* * * * *

* ثم قال: «وكان فضل الله عليه عظيماً».

* الشرح:

حيث تفضل عليه بالسمع، والبصر، واللسان الناطق، والعقل المفكر، والجوارح التي يتحرك بها؛ فيمشي، ويبطش، ويعمل، ويصنع.

* * * * *

* ثم قال: «ونبهه بآثار صنعته».

* الشرح:

أي: نبيه بذلك على حكمة ربه وقدرته على أنه خلقه لعبادته، قال ﷺ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٢٥) ﴿أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٢٦) ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧].

* * * * *

* ثم قال: «وأعذر إليه على السنة المرسلين الخيرة من خلقه، فهدى من وفقه بفضله، وأضل من خذله بعدله».

* الشرح:

ففي هذه الجملة بين المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بِأَن الله ﷻ أرسل رسله من بني آدم إليهم فدعاهم إلى توحيدِهِ، وإفراده بالعبادة، ونبههم على أن العبادة هي الحكمة في أصل الإيجاد، فقال ﷺ: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥-٣٦].

وقال ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال ﷺ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ثم بين رَحِمَهُ اللهُ أَن الناس بعد الرسالات انقسموا إلى قسمين: فريق تابعوا الرسل، وآمنوا بما جاءوهم به، فكانوا مهتدين، وفريق كذبوا وأبوا فكانوا مخذولين ضالين، فهو قد هدى من وفقه بفضله، وأضل من خذله بعدله.

قال ﷺ: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

* ثم قال: «وَيَسَّرَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْيُسْرَى، وشرح صدورهم للذكرى، فأمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلوبهم مخلصين، وبما أتهم به رسله وكتبه عاملين».

* الشرح:

يَبِّينُ عَلَى التَّفْصِيلِ مَا يَلْزَمُ فِي الْإِيمَانِ مِنْ اتِّفَاقِ الْقُلُوبِ وَالْأَلْسِنَةِ وَالْجَوَارِحِ عَلَى مَقْتَضَاهُ فَالْقَلْبُ يَعْتَقِدُ وَيُؤْمِنُ وَيُصَدِّقُ، وَاللِّسَانُ يَنْطِقُ مُوَافِقَةً لِلْقَلْبِ عَلَى مَقْتَضَى مَا صَدَّقَ بِهِ، وَالْجَوَارِحُ تَعْمَلُ عَلَى مَقْتَضَى مَا أَمَرَتْ بِهِ مِنْ أَفْعَالٍ وَتُرُوكٍ.

* ثم قال: «وَتَعَلَّمُوا مَا عَلَّمَهُمْ».

* الشرح:

أَي: مَا عَلَّمَهُمْ مِنْ شَرَائِعِ الْإِيمَانِ، تَعَلَّمُوا ذَلِكَ، وَوَقَفُوا عِنْدَ مَا حَدَّ لَهُمْ - أَي: مِنَ الصِّفَاتِ -، أَي: مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ ﷻ الْعَلِيَا، وَأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، فَوَقَفُوا عِنْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ، وَكُتِبَ عَنْهُمْ الْكَيْفِيَّةُ، فَأَمَّنُوا بِمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ، وَتَرَكُوا مَا سَكَتَ عَنْهُ، وَلَمْ يَتَجَاوَزُوهُ كَمَا قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَنْ قَالَ لَهُ: بَأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الفرقان: ٥٩]. كَيْفَ اسْتَوَى؟

فَقَالَ: «الْإِسْتَوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيفُ مَجْهُولٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ

عنه بدعة»^(١).

فدلّ ذلك على أن المؤمنين آمنوا بما بينه لهم، وتوقفوا عند ما حد لهم ولم يتجاوزوا ذلك.



* ثم قال: «واستغنوا بما أحل لهم عما حرم عليهم».

* الشرح:

فدلّ على عبوديتهم لله ﷻ حيث آمنوا بما أخبر به، وتعلموا ما أمرهم بتعلمه، ووقفوا عند ما حد لهم، وأخذوا ما أحل لهم، وامتنعوا عما حرم عليهم، فكانوا عباد الله حقاً.

قال ﷻ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ۝﴾ [الفرقان: ٦٣-٦٤] الآيات...

هذا هو شرح هذه المقدمة، أما بعد هذا فقد ذكر رَحِمَهُ اللهُ الدافع الذي حمله على كتابة هذه الجملة المختصرة فقال: «أما بعد: أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه، وحفظ ما أودعنا من شرائعه».

والودائع تفسر بالأمانات التي أوّتمن عليها الإنسان في خلوته وجلوته من أداء العبادة، والتطهر حق الطهارة، وحفظ الحواس والجوارح عما حرم الله. وفي الحديث: «استحيوا من الله حق الحياء. قالوا: إنا نستحي من الله يا نبي الله،

(١) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (ص ٣٣)، وقال الذهبي في العلو (١٤١): هذا ثابت عن مالك.

والحمد لله. قال: ليس ذلك؛ ولكن الاستحياء من الله حق الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى، وأن تحفظ البطن وما حوى، وأن تذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا...». الحديث^(١).

* * * * *

* ثم قال: «فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة مما تنطق به الألسنة وتعتقد القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها، وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه على مذهب الإمام مالك بن أنس - رحمه الله تعالى - وطريقته».

* الشرح:

هذا قول المؤلف رَحِمَهُ اللهُ، ونحن نقول: إن التفقه على ما صح عن النبي ﷺ على مذهب أي إمام كان، فمن وافقه الدليل منهم فقله المقدم، ومن خالف الدليل بشيء من التأويل، أو عدم صحة الدليل عند المستدل، أو ما أشبه ذلك من الأمور التي تحمل ذلك الإمام على عدم القول بالدليل في مسألة ما؛ فنحن نعذره ونقول: إنه لم يترك الدليل إلا لأنه لم يبلغه، أو أنه أوله، أو تعارض مع غيره عنده، ونحن نهيب بالأئمة ونكرمهم عن أن يكونوا قد تركوا الدليل عامدين بدون عذر، ولا عيب على من ترك قول ذلك الإمام الذي خالف الدليل، لا عيب عليه في تلك المخالفة؛ لأن كلاً يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله ﷺ.

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٨)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٣٥).

وكلنا نؤمن بأننا جميعاً إنما كلفنا بمتابعة الرسول ﷺ لا بمتابعة غيره، وأن من عظم شأنه من الأئمة وكثر أتباعه منهم إنما حصل ذلك لأن التابعين له ظنوا أنه من المتبعين لرسول الله ﷺ في كل شيء إلا ما خفي عليه من غير قصد ولا تهاون، وقد تبين من هذا أن الواجب علينا جميعاً هو اتباع الدليل، سواء كان الدليل مع مالك، أو الشافعي، أو أحمد بن حنبل، أو أبي حنيفة أو غيرهم.



* ثم قال: «مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين، وبيان المتفقهين لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان كما تعلمهم حروف القرآن».

* الشرح:

وأقول: يقصد المؤلف من هذا: أن الواجب أن نأخذ من تفسير الراسخين في العلم والمتفقهين في الدين ما يناسب تلك المسألة مما يجعل الإنسان عارفاً لتلك المسألة، وما قيل فيها، غير أن الواجب عليه أن يتبع ما ترجح عنده إن كان مؤهلاً، وأن يعلمه لمن وكل إليه تعليمهم من الأطفال والصغار أو الشباب الذين يريدون معرفة الحق ليتبعوه.



* ثم قال: «ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته وتُحمَد لهم عاقبته».

* الشرح:

يعني: أن الأطفال الذين يُعلمون العقيدة الصحيحة من الصغر أن تلك

العقيدة الصحيحة تحتل قلوبهم فتثبت فيها وتمنع ما يُعرض عليها من المحدثات التي تردّها الشرائع، وقد أشار حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه إلى ذلك؛ فقال فيما رواه عن النبي ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصار عودًا عودًا، -أو: كالحصار عودًا عودًا- فأَيُّ قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء»^(١).

وقد أشار المؤلف إلى أن خير القلوب أوعاها للخير، فقال بعد قوله: «فأجبتك إلى ذلك لما رجوته لنفسك ولك من ثواب من علم دين الله، أو دعا إليه».

* * * * *

* ثم قال: «واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير، وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه».

* الشرح:

يعني: أن القلوب التي يسبقُ إليها الشر تتأثر به غالبًا، وأن القلوب التي يأتي إليها الخير، وهي خالية صافية فهي التي يرجىُ تقبلها لذلك الخير والعمل به.

* * * * *

* ثم قال: «وأولئِ ما عني به الناصحون، ورغب فيه أجره الراغبون إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها، وتنبيههم على تعاليم الديانة، وحدود الشريعة ليراضوا عليها».

* الشرح:

قوله: «ليراضوا عليها». من الرياضة، وهي التمرين على الشيء.

(١) أخرجه مسلم (١٤٤).

* «وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم، وتعمل به جوارحهم، فإنه قد روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفى غضب الله، وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر».

* الشرح:

وأقول: هذا كلام حق - إن شاء الله - إذا قصد به تعليم الصغار العقيدة الصحيحة حتى ينجو في مستقبلهم من قبول المحدثات والبدع والضلالات.

* * * * *

* قال: «وقد مثلت لك من ذلك ما ينتفعون - إن شاء الله - من حفظه ويشربون من علمه ويسعدون من اعتقاده والعمل به، وقد جاء - أي: عن النبي ﷺ - أن يؤمروا بالصلاة لسبع سنين، ويضربوا عليها لعشر سنين، ويفرق بينهم في المضاجع، فكذلك ينبغي أن يُعلِّموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل قبل بلوغهم؛ ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكن ذلك من قلوبهم، وسكنت إليه أنفسهم، وأنست بما يعملون به من ذلك جوارحهم، وقد فرض الله ﷻ على القلب عملاً من الاعتقادات، وعلى الجوارح الظاهرة عملاً من الطاعات، وسأفصل لك ما شرطت لك ذكره باباً باباً ليقرّب من فهم متعلميه - إن شاء الله تعالى - وإياه نستخير وبه نستعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً».

* * * * *

* قال الماتن: أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني رَحِمَهُ اللهُ:

باب: ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة

من واجب أمور الديانات

«من ذلك الإيمان بالقلب، والنطق باللسان أن الله إله واحد لا إله غيره ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له، ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء، ولا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون بآياته، يعتبر المتفكرون بآياته، ولا يتفكرون في ماهية ذاته، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم».

* الشرح:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* قوله: «باب: ما تنطق به الألسنة، وتعتقده الأفئدة من واجب أمور

الديانات».

* قال: «من ذلك الإيمان بالقلب».

* قلت: ومعنى الإيمان بالقلب، أي: التصديق بوحداية الله ﷻ مؤكداً

ذلك بالنطق باللسان أن الله إله واحد لا إله غيره، وهذا معنى لا إله إلا الله.

فكلمة «لا إله» مركبة من جملتين: جملة النفي، وجملة الإثبات.

فجملة النفي المتقدمة، وهي مؤلفة من «لا» النافية ومنفيها، فـ: «لا» كلمة نفي و«إله»: نكرة تشمل جميع الآلهة إذ إن النكرة إذا كانت في سياق النفي فهي تعم، ومن أجل ذلك اقتضى هذا النفي أنه نفي لجميع الآلهة أي نفي لجميع المعبودات، ثم بعد ذلك جاء الإثبات بـ«إلا» الاستثنائية، لا إله إلا الله، وهذا مقتضى قوله أن الله إله واحد لا إله غيره، ومصدق ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].



* أما قوله: «لا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له».

فهذا نفي لكونه متولداً من غيره، أو غيره متولد منه، ونفي للأشباه والنظراء والمعينين والوزراء، ونفي للصاحبة والشريك، وهذا النفي تضمنته سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ أَي: المقصود في الحوائج: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ يُولَدْ ۝ (٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾. ثم يأتي بعد ذلك الجملة الأخرى النافية لابتداء وجوده، ولانتهاء ديموميته، وانقضاء ربوبيته، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ:



«ليس لأوليته ابتداء، ولا لأخريته انقضاء».

* الشرح:

وهذا المعنى تثبته الآية الثالثة من سورة الحديد، حيث يقول فيها رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

وفي الحديث الصحيح، عن النبي ﷺ: «اللهم أنت الأول الذي ليس قبلك شيء، وأنت الآخر الذي ليس بعدك شيء، وأنت الظاهر الذي ليس فوقك شيء، وأنت الباطن الذي ليس دونك شيء»^(١).



* قوله: «ولا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون، يعتبر المتفكرون بآياته، ولا يتفكرون في ماهية ذاته، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يثوده حفظهما وهو العلي العظيم».

* الشرح:

يقرر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ عَجَزَ المخلوقين عن بلوغ وصفه، وعجزهم عن الإحاطة بأمره، وأنهم مأمورون بالتفكر في آياته؛ أما ذاته فلا تفترضها الأذهان، ولا تبلغها المقاييس؛ فالقلوب عاجزة أن تتصور صفته، والأذهان كالألة أن تحيط بمعرفته، فلا يقدر العباد أن يعلموا من صفاته وأسمائه ونعوت ذاته إلا ما علمهم إياه، فالاعتراف بالعجز عن بلوغ معرفته هو الغاية التي ينبغي أن ينتهي إليها كل مخلوق، ولقد قرر ذلك بقوله: «ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء».



(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

* قوله: «العالم الخبير المدبر القدير السميع البصير العلي الكبير، وأنه فوق عرشه المجيد بذاته وهو في كل مكان بعلمه».

* الشرح:

تضمن قوله رَحِمَهُ اللهُ أَنْ اللهُ موصوف بصفات الكمال فكل وصف وصف الله به نفسه فهو في غاية الكمال، فإذا وصفنا الله بأنه عالم كما وصف ذلك في قوله سبحانه: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿[الحج: ٢٦-٢٧].

فإن معنى ذلك: أن الله له الوصف الأعلى في العلم والاطلاع، كذلك له الوصف الأعلى في الخبرة حينما نقول: الخبير فهو خير ببواطن الأمور وظواهرها.

المدبر: موصوف بأنه يدبر هذا الكون، ويصرفه ويجريه على ما قد قدره له ﷻ.
السميع البصير: هاتان الصفتان وصف الله بهما نفسه ووصفه بهما رسوله ﷺ، فإذا وصفناه بالسميع فإن معنى ذلك أنه سميع لكل مسموع حتى ما يخفى على الناس يسمعه، وما تخفى رؤيته على الناس يبصره، فعندما نصف الله ﷻ بأنه السميع البصير فإن هذا الوصف يقع على أكمل صفة فيه وأعلاها والإنسان موصوف بأنه سميع بصير، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]. فإذا اتفقت صفة الله وصفة العبد في الأسماء فهل يلزم من ذلك اتفاقهما في الحقائق؟

الجواب: لا.

تقول عائشة ؓ: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد كانت خولة بنت ثعلبة تجادل النبي ﷺ في زوجها في ناحية البيت فيخفى علي بعض

كلامها فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] ^(١).

فسمع الإنسان يحجبه البعد، وتحجبه الحجب، وسمع الله لا يحجبه شيء، وكذلك بصره ﷻ يرى ما في تضاعيف الأرض، وما في أجواف البحار، يرى كل شيء فنحن إذا وصفنا الله بأنه سميع بصير فإن له أكمل وصف في ذلك وأعلاه - جل شأنه وتقدس أسمائه -.

العلي: علو المكانة، وعلو المكان، وعلو القدر؛ فهو عال على عرشه بذاته، وهو مستعل على كل شيء من خلقه بقدرته، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۗ أُنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ٦١].

وقوله: ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

* قوله: «وأنه فوق عرشه المجيد بذاته وهو في كل مكان بعلمه».

* الشرح:

بمعنى أنه مطلع على كل مكان لا يخلو من علمه مكان.

(١) أخرجه البخاري تعليقا في كتاب التوحيد، باب: وكان الله سميعا بصيرا.

* ثم قال: «خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين».

* الشرح:

في هذه الفقرة بيان شمول علمه ودقته، بحيث لا تغيب عنه ورقة تسقط من شجرتها إلا ويعلم الشجرة أين مكانها من الأرض، ويعلم الورقة أين مكانها من الشجرة، وما من حبة تلقى في الأرض إلا ويعلم أين وقعت، كل ذلك معلوم عنده ﷻ، لهذا فإن الواجب على العبد أن يؤمن بهذا كله، ويعتقد صحته، ويعتقد كمال علم ربه ﷻ.

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]. بل نؤمن أن كل ما يقع في الكون فهو مدون في أم الكتاب لا يشذ عن علمه شيء.

* قوله: «على العرش استوى، وعلى الملك احتوى».

* الشرح:

على العرش استوى، لا شك في ذلك، كما أخبر بذلك عن نفسه في سبعة مواضع من القرآن، وأهل العلم من سلف هذه الأمة يقولون: استوى استواء يليق بجلاله ﷻ، فنحن نؤمن بذلك، ونكل كيفية الاستواء إلى الله ﷻ.

وقد قيل لمالك رَحِمَهُ اللهُ: إن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي

سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]. كيف استوى؟

فأطرق مالك رَحِمَهُ اللهُ وتعجب من هذا السؤال العجيب، وعلاه العرق، ثم رفع رأسه، وقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأنت رجل سوء؛ أخرجوه»^(١).

* * * * *

* أما قوله: «وعلى الملك احتوى».

* الشرح:

فهذه الجملة يُلاحظ على المؤلف فيها، فينتقد عليه هذا التعبير؛ إذ إن قوله: «وعلى الملك احتوى». كأنه يشعر بمنازع لله فيه، وليس كذلك، والذي نظنه أن ذلك جرى على لسانه من باب التجنيس، وإلا فمن هو المنازع لله حتى يكون الله قد احتوى على الملك بعد المنازعة.

فالله عَزَّ وَجَلَّ لا منازع له هو الخالق لهذا الكون، والمنشئ له، والحافظ له بمن فيه قال -جل من قائل-: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

وقال -جل من قائل-: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال -جل شأنه-: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقال في موضع آخر: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾^(٤٢) سُبْحَانَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا^(٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ

(١) مر تخريجه (ص ٢٤).

شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿[الإسراء: ٤٢-٤٤].

والمهم أن قوله: «وعلى الملك احتوى» كان ينبغي ألا يقال؛ لأنها تشعر بضد احتوى الله على الملك بعده، ولا ينبغي أن نقر مثل هذا، والله أعلم.

* قوله: «وله الأسماء الحسنى».

* الشرح:

هذا قيد الأسماء بأن الله وَجَلَّ يُسَمَّى بأسمائه الحسنى، كما قال وَجَلَّ: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وهذا يدلنا على أنا لا نسمي الله وَجَلَّ إلا بأسمائه الحسنى التي تتضمن الكمال المطلق له - جل وعلا - وعلى هذا فإنه لا يجوز أن نسمي الله وَجَلَّ بأسماء لا تتضمن ذلك، فإذا كان الاسم بانفراده يُفهم منه نقص، لم يجر أن نسميه به على انفراده، فهناك أسماء تُذكر على سبيل المقابلة، كقوله تعالى: ﴿وَمَكْرُومَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠-٥١].

وقوله: ﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦].

فهذه الأسماء والصفات لا يساق منها اسم بانفراده؛ لأنه يوهم النقص، وإنما ذكرت على سبيل المقابلة؛ أي: أن الله يقابل مكرهم وخداعهم وكيدهم بمثله - فلا يجوز أن نصف الله بأنه مكر، أو خادع، أو كائد؛ لأن هذا الاسم، أو تلك

الأسماء توهم نقصاً، وكذلك ما كان لا يتضمن كمالاً فهو كذلك أيضاً كقوله -جل وعلا-: ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةٌ قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩].

ف«شيء» هنا نكرة دخل فيها الله ذو الجلال والإكرام وغيره، فلا يجوز أن نسميه بأنه شيء؛ لأن ذلك لا يتضمن مدحاً.

وكذلك حديث: «لا شخص أغير من الله»^(١). فلا نسميه شخصاً، لأن ذلك لا يتضمن مدحاً، وعلى هذا فإن الواجب علينا أن نسمي الله وَجَلَّ بالأسماء التي تتضمن المدح؛ لقوله وَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].



* قوله: «والصفات العلا».

* الشرح:

الصفات الواردة في القرآن والسنة التي ينبغي أن نصف الله بها معتقدين لكمالها، وعلوها، فإذا اتفقت مع بعض صفات المخلوقين، فنحن نؤمن أن صفات الله وَجَلَّ متضمنة العلو والكمال في تلك الصفات، فإذا وصفنا الله بأنه حي، ووصفنا المخلوق بأنه حي، فيجب أن نعتقد الفرق بين حياة الخالق والمخلوق. فحياة الخالق كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، بخلاف حياة المخلوق، فكل مخلوق حياته محاطة بالعدم السابق، والفناء اللاحق، وهي أيضاً مفتقرة إلى من أوجدها، ويقوم بوجودها، فمثلاً الإنسان حياته متوقفة على ما جعلها الله وَجَلَّ متوقفة عليه فهي لا تبقى إلا بوجود ما قدر الله بقاءها عليه.

(١) أخرجه البخاري تعليقاً، كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ لا شخص أغير من الله، ومسلم (١٤٩٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

فالإنسان والحيوان حياتهما متوقفة على ثلاثة أمور هي: الأكل، والشرب، والراحة - الذي هو النوم -، والملائكة خلقهم الله على ما خلقهم عليه فهم لا يحتاجون إلى أكل، ولا إلى شرب كما يحتاجها الإنس والجن؛ ولكنهم مفتقرون في وجودهم إلى الله الذي أوجدهم، والمهم أننا إذا وصفنا الله بصفاته التي وصف نفسه بها في كتابه، أو على لسان رسوله فإننا نعتقد بأن صفاته غاية في الكمال وعلو الشأن.

* * * * *

* قوله: «لم يزل بجميع صفاته وأسمائه».

* الشرح:

أي: أنه لم يزل متصفاً بصفاته الذاتية، وصفاته الفعلية، وصفات الذاتية والفعلية، فهو لم يزل متصفاً بها جميعاً، والصفات تنقسم إلا ثلاثة أقسام: أولاً: صفات ذاتية محضة: كصفة السمع والبصر، وصفة الوجه واليدين، وصفة الكفين والأصابع والرجل والساق والقدم.

ثانياً: صفات ذاتية فعلية: كصفة الكلام، والخلق وما أشبه ذلك.

ثالثاً: صفات فعلية: كصفة الاستواء وصفة النزول، والمجيء، وصفة الإتيان.

فهذه الصفات كلها يجب أن نثبتها لله وَجَلَّ، إثباتاً يليق بجلاله منزهاً عن النقص والحدوث، ولهذا قال المصنف: «تعالى الله أن تكون صفاته مخلوقة، أو أسماؤه محدثة».

* * * * *

* قوله: «كلم الله موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته التي يفعلها متى شاء، وكيف شاء».

* الشرح:

وأهل السنة يقولون: نعتقد أن الله يتكلم بكلام قديم النوع حادث الأحاد، ومعنى ذلك: أن الكلام صفة لله هو متصف بها، فهو يتكلم متى شاء وكيف شاء. فقولهم: قديم النوع؛ يعني: أن الكلام صفة لله ثابتة لجلاله، موجودة بوجوده الذي ليس له ابتداء، ولم يكن له ابتداء، ولا يكون له انتهاء.

أما قولهم: حادث الأحاد، فمعناه: أن الكلام يحدث منه سبحانه متى شاء، وفي الوقت الذي يشاء، فهو موصوف بالكلام، ومن لا يتكلم فهو ناقص، ومن لا ينطق فعنده نقص، كيف يمكن أن يكون إلهاً، والله ﷻ قد وصف أقواماً من الناس بأن لهم قلوباً لا يفقهون بها، ولهم أعيناً لا يبصرون بها، ولهم آذاناً لا يسمعون بها، فمن لم يكن موصوف بالفهم والبصر والسمع فهو ناقص؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والكلام عدمه نقص، ووجوده كمال في حق الإنسان، فلو أن قوماً أرادوا أن يملكوا عليهم ملكاً فاختاروا ذلك الملك، بأن يكون أبكم لا يتكلم وأعمى لا يبصر، وأصم لا يسمع وضعيف الفهم لا يفهم، أ يكونون قد أصابوا؟!

الجواب: لا، فكيف يكون جبار السموات والأرض وخالقهما ومنشئهما على غير مثال سبق يوصف بأنه لا يتكلم، يصح أن يكون إلهاً لا يتكلم؟!

الجواب: لا، وقول الله ﷻ: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا

أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿[الأنبياء: ٢]﴾. فوصفه بأنه محدث إنما هو بالنسبة للمخلوقين، أما باتصاف قائله به فليس بمحدث بل إن الكلام صفة له - جل وعلا - على ما يليق بجلاله ﷻ.

قال الله ﷻ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وقال - جل من قائل - : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقال ﷻ: ﴿صُمُّ بَيْكُمُ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعِجُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

فدم الله المنافقين بعدم السمع، وعدم الكلام وهو البكم، وعدم البصر وهو العمى، وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

فهذه الآيات مثبتة لكلام الله ﷻ على ما يليق بجلاله، وأن هذه الصفة قديمة بقدمه باقية ببقائه كاملة بكمال المتصف بها ﷻ، وفي الحديث: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات التامات من شر ما خلق؛ لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»^(١).

والله تعالى يقول: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]. وهذا من حيث اتصافه بالكلام.

والقرآن كلام الله ﷻ أنزله على عبده ورسوله؛ ليكون تشريعاً لعباده إلى يوم القيامة، وقد وصف به نفسه، وأضافه إليه حيث يقول - جل من قائل - : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦].

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.

فمن زعم أن القرآن مخلوق، فهو كافر بهذه الآيات التي سردناها.
وقد اتفق أهل السنة والجماعة من أهل الحديث والفقهاء على أن من قال:
القرآن مخلوق؛ فإنه كافر، وكذلك من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع.
وبعضهم كفر من قال ذلك؛ ولكن الأكثر على وصفه بالابتداع؛ بل ومن
وقف فلم يقل: مخلوق، ولا غير مخلوق، ولم يجزم بأنه كلام الله فهو مبتدع أيضاً،
ولقد وقف الإمام أحمد ومن معه من أهل السنة موقف الصرامة من الواقعة.
وممن صرح بأن لفظه بالقرآن مخلوق، فهجروهم ومنعوا أخذ العلم عنهم،
وإن كانوا علماء؛ وإنما كان ذلك منهم لأجل قطع الطريق على من يريد التلاعب
في القرآن فأطلق أن لفظه بالقرآن مخلوق؛ حيث إن اللفظ يشمل فعل العبد،
ويشمل القرآن الذي هو كلام الله، فمن ذلك كان موقفهم من هذا النوع من الناس،
موقف القوة والصرامة.

فقد نهى أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ عَنْ إتيان الحسين بن علي الكرابيسي، وعن
أخذ العلم عنه، ومنع رَحِمَهُ اللهُ أَنْ يسمح بدخول داود الظاهري عليه من أجل أنه وقف،
وكذلك يعقوب الدورقي، وأمثال هؤلاء الذين وقفوا، ولهذا قال المصنف: «وأن
القرآن كلام الله ليس بمخلوق».



* قوله: «وتجلى للجبل فصار دكاً من جلاله».

* الشرح:

أي تجلى الله للجبل فصار دكاً من جلاله، يشير المصنف في هذه الجملة
إلى قوله ﷺ عن موسى عليه السلام أنه قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ

أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُنْتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[الأعراف: ١٤٣].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وفي الحديث: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجاب النور، لو كشفه لأحرقت سُبحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(١).



* قوله: «والإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره، وكل ذلك قد قدره الله ربنا، ومقادير الأمور بيده ومصدرها عن قضائه علم كل شيء قبل كونه فجري على قدره، ولا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضاه وسبق علمه به ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المالك: ١٤]».

* الشرح:

الإيمان بالقدر خيره وشره، ركن من أركان الإيمان الستة لا يؤمن أحد إلا بالإيمان بذلك وقد روى مسلم^(٢): أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه بينما هو داخل المسجد اكتنفه رجلان من أهل البصرة فقال أحدهما -وظن أن صاحبه سيكل الكلام إليه-: قال: إنه قد ظهر قِبَلْنَا أقوام يقرءون القرآن، ويتقفرون العلم،

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٨).

يزعمون أن لا قَدَر، وأن الأمر أنف.

فقال له عبد الله بن عمر: «إذا لقيت أولئك فأخبرهم أنني براء منهم، وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهبًا ما تُقبل منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره».

ثم شرع يحدث عن أبيه بالحديث الذي حدثه عن مجيء جبريل عليه السلام وسؤاله النبي ﷺ عن أركان الإسلام والإيمان، والإحسان فذكر أن أركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام.

وأن أركان الإيمان ستة: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره... الحديث.

فالإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، ولا يصح إيمان عبدٍ إلا بذلك، وقد خالف في ذلك فتان هما:

- القدريّة النفاة.

- والقدريّة الغلاة.

فالقدريّة النفاة: هم الذين يزعمون أن الله قدر الخير، ولم يقدر الشر، وهذا هو المذهب السائد عند المعتزلة، وهم في زعمهم أنهم ينزهون الله عن كونه يقدر الشر ثم يعاقب عليه، ولم يعلموا أنهم قد وقعوا فيما هو أشد مما فروا منه، فإنهم إذا زعموا أن الله خالق الخير، وأن كل إنسان خالق للشر الذي يصدر منه، من: كفر، وفجور، ومعاص كبائر، أو صغائر، فإن ذلك يستلزم أمورًا:

· أولها: أنهم قد أثبتوا خالقين فشابهوا المجوس بذلك.

ثانيها: أنهم قد نسبوا الله إلى العجز، حينما يكون في كونه شيء لم يقدره.

ثالثها: أن ذلك يستلزم أن الله كان مغلوبًا على أمره، وأن الكفار غلبوه، وهذا قول باطل.

وأما القدرية الغلاة: فهم الذين يقولون: إن العبد مجبور على ما صدر منه، سواء كان كفرًا، أو إيمانًا، أو طاعةً، أو معصيةً، وزعموا أن الإنسان بمنزلة الغصن الذي يحرك، والحجر الذي يُدحرج، وهذا القول قول باطل أيضًا.

وكل إنسان من هذه الخليقة كلها يحس بأنه حر في اختياره، فهو يفعل ما يشاء بخيرة نفسه، وأنه لا إجبار عليه، وهذان القولان هما قول القدرية.

أما أهل السنة والجماعة، فإنه يقولون: أن الله - جل وعلا - له إرادتان:

الأولى: إرادة كونية قدرية، أراد فيها وقوع الخير، والشر، والإيمان، والكفر، والطاعة، والمعصية، وكتب ذلك على العباد، وكل منهم صائر إلى ما كتب له أو عليه بما منحه الله من قدرة، وما رُكب فيه من إرادة واختيار.

أما الإرادة الأخرى: فهي الإرادة الشرعية، وأن العباد مخلوقون، وأعمالهم مخلوقة أيضًا.

يدل على ذلك قول إبراهيم الخليل لقومه فيما حكاه الله عنه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ

مَا تَنْحِتُونَ ۖ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦]. فأخبر أن أعمالهم

مخلوقة كما أنهم هم مخلوقون، وأن الله يجازي العباد على كسبهم، الذي فعلوه

بمحض إرادتهم واختيارهم، وله على عباده الحجة الدامغة، وله فيهم الحكمة

البالغة، ويؤمن أهل السنة والجماعة بأن الله لا يعذب أحدًا من خلقه إلا بذنب،

وأن الله لا يظلم أحدًا من خلقه كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ

شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿[النساء: ١٤٧]﴾.

وقال -جل من قائل-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال -جل من قائل-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

فهذه عقيدة أهل السنة والجماعة: يعتقدون أن الله خلق العباد وأعمالهم، وأنه يشبههم عليها، أو يعاقبهم بسبب كسبهم لها الذي صدر عن محض إرادتهم واختيارهم، وجل ربنا وتقدس من أن يظلم أحداً من خلقه.

وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم^(١)، عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ -فيما يرويه عن ربه ﷻ-: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا».

فدلت الأدلة الشرعية أن الله لا يظلم أحداً من خلقه، إلا أن الله يُنزه عن نسبة الشر إليه إجلالاً له ﷻ؛ ولهذا قالت الجن حين طردوا من السماء: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

فقولهم: أشرُّ أريد بمن في الأرض، إنما قالوا ذلك تنزيهاً لله ﷻ مع علمهم بأن الله هو خالق الخير والشر.

ومن ذلك قول النبي ﷺ: «لبيك وسعديك والخير كله في يديك، والشر ليس إليك»^(٢). فنزه النبي ﷺ ربه عن نسبة الشر إليه.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه مطولاً.

ويؤمن أهل السنة والجماعة أن الله يَمُنُّ على من يشاء من عباده بالهداية، فضلاً منه ورحمة وكرماً، وأن الله يضل من يشاء من عباده بالهداية، عدلاً منه ﷻ؛ لذلك فإن الواجب علينا أن نسير على ضوء ما قرره لنا ربنا في كتابه، وما قرره لنا نبينا ﷺ في سنته، وألاً نُحكِّم عقولنا في هذا الأمر.

ومن هنا يتبين أن مذهب أهل السنة والجماعة هو الحق، وأن المذاهب الأخرى مذاهب ضلال سواء منها ما هو غلو أو تقصير.

* * * * *

* أما قوله: «علم كل شيء قبل كونه فجرى على قدره».

* الشرح:

فنحن نقول: إن الله قدَّر هذه المقادير وقضاها وكتبها في اللوح المحفوظ. فقول المصنف: «علم كل شيء قبل كونه». هذا ربما يكون فيه مدخل لمن يقول: إن العباد يخلُقون أفعالهم بأنفسهم، وأن الله عَلِمَ منهم أنهم سيعلمون ما يعلمون، ولم يكن هذا الاعتقاد خطأ بل نقول: إن الله قدر ما قدر في هذه الكائنات، وقضاه في كتابه اللوح المحفوظ - أي: كتب ما قدره -.

أما كونه «عَلِمَ كل شيء قبل كونه». أي: أنه علم بكونه قد قدره وقضاه، ولهذا فقد ورد أن الكرام الكاتبين يكتبون ما حصل من العباد من أعمالهم القولية والفعلية، وكذلك ما انعقدت عليه قلوبهم، ثم إنهم يعرجون بعدما يكتبون ما حصل من العباد من أعمالهم القولية والفعلية.

وكذلك ما انعقدت عليه قلوبهم، ثم إنهم يعرجون بعدما يكتبون هذه الكتابات، فيطبِّقونها على ما كُتِبَ في اللوح المحفوظ، فيجدونها مطابقة لذلك أكمل

المطابقة، ثم إن للقدر أربع مراتب:

الأولى: عِلْمُ اللَّهِ ﷻ بتقدير المقادير.

الثانية: كتابتها في اللوح المحفوظ.

الثالثة: وقوعها تحت مشيئته.

الرابعة: الخلق والإيجاد.

وينقسم القدر من حيث التفصيل في العلم والكتابة إلى أقسام:

١- القدر العمري: وهو حينما يدخل المَلَكُ على النطفة، ويكتب ما قُدِّرَ

لها من شقاوة وسعادة، وما إلى ذلك، وإليه أشار ابن مسعود رضي الله عنه بقوله: حدثنا الصادق المصدوق: «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسلُ إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد...». الحديث^(١).

٢- القدر الحولي: وهذا يكون في ليلة القدر، فيكتب فيها ما يحدث خلال

الحول، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

٣- القدر اليومي: وهو بيان ما يخص كل يوم كما قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي

شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

٤- القدر الأزلي: وهو المكتوب في اللوح المحفوظ، كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. وعلى هذا يكون القدر المتعلق بالكتابة أربعة

أقسام: أزلي، وهو القدر العام، والعمرى، والحولي، واليومي والثلاثة الأخيرة مأخوذة من الأزلي.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣).

* قوله: «يضل من يشاء فيخذه بعدله ويهدي من يشاء فيوفقه بفضلته».

* الشرح:

قد تقدم لنا أن الله ﷻ كتب مقادير هذا الكون وقضى فيه بما قضى من شقاوة وسعادة وحياة وموت وصحة ومرض وغنى وفقير وإعزاز وإذلال وتمليك وسلب، فكل شيء قد قضاه وكتبه في لوحه المحفوظ قال ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ﴾.

وقال ﷻ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢].

وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله مسح ظهر آدم، فاستخرج ذريته كالذر فقبض قبضة فقال: هؤلاء إلى النار ولا أبالي، وقبض قبضة أخرى فقال: هؤلاء إلى الجنة برحمتي»^(١).

وتقدم لنا أن الله ﷻ عدل لا يظلم أحداً من خلقه، كما قال تعالى - جل من قائل -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]. وكما قال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال ﷻ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]. إلى غير ذلك.

(١) أخرجه أحمد (٢٦٩٤٢) من حديث أبي الدرداء ﷺ، ولفظه: «خلق الله آدم حين خلقه، فضرب كتفه اليمنى، فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر، وضرب كتفه اليسرى، فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم، فقال للذي في يمينه: إلى الجنة ولا أبالي، وقال للذي في كفه اليسرى: إلى النار ولا أبالي»، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩).

وفي الحديث القدسي قال الله -تبارك تعالى-: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»^(١).

وعلى هذا فنحن نقول: إن الله ﷻ يضل من يشاء بعدله فيخذه، ويخلي بينه وبين الشيطان فيستولي عليه، ويقوده إلى نار جهنم، قال ﷻ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّاتُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنَى وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]. وقال ﷻ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الظُّلُمِ فَإِنَّهُ يَكُونُ أَمْراً مُبْتَلِئاً وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ غَيْرِ ظُلْمٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ أَمْراً مُبْتَلِئاً وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ غَيْرِ ظُلْمٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ أَمْراً مُبْتَلِئاً﴾ [الزخرف: ٣٦].

فالإضلال قدرٌ من الله والعبد كاسب للضلال وفاعل له باختياره وبتأثير الشيطان عليه، والله ﷻ يعاقبه بهذا الكسب والاختيار.

«ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله»: أي: أن الله ﷻ إذا أراد بعبد خيراً يسهل له من يقوده إلى الخير، وإذا أراد الله بعبد شراً خلى بينه وبين نفسه وشيطانه.

وقد قال الصحابة -رضوان الله عليهم-: «أرأيت ما نعمل يا رسول الله هل هو في أمر قد فرغ منه، أم أمر مستأنف؟ فقال ﷺ: بل في أمر قد فرغ منه. قالوا: ففيم العمل إذن يا رسول الله، أفلا نتكل على كتبنا وندع العمل؟ فقال ﷺ: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأهل السعادة يُيسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة يُيسرون لعمل أهل الشقاوة»^(٢).

اللهم إنا نستجير بك من الخذلان، ونعوذ بك من الانتكاس بعد الاستقامة، ومن الغي بعد الرشد، نسألك أن تثبتنا على الحق حتى نلتقاك؛ لهذا قال المصنف:

(١) مر تخريجه (ص ٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

«فكل ميسر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره من شقي وسعيد». وكان الأولى أن يقول: «من شقاوة أو سعادة».

* * * * *

* ثم قال رَحِمَهُ اللهُ: «تعالى الله أن يكون في ملكه ما لا يريد، أو يكون لأحد عنه غنى».

* الشرح:

أي: أن القائلين بالقدر، وهم: القدرية النفاة، يتضمن قولهم أنه يقع في ملك الله ما لا يريد، وهذا مستحيل لا يكون في ملكه شيء إلا وقد أراده؛ بل سبق أن قلنا أن الله أراد الكفر، والفسوق، والعصيان كوناً، ومنعه شرعاً، وأن العباد صائرون إلى ما أراده كوناً.

فالذين يقولون: إن الخير من الله، والشر من الإنسان؛ جعلوا خالقين فأشبهوا المجوس، ولزم من قولهم أن يكون في ملك الله ما لا يريد، واقتضى هذا القول أن يكون الله مغلوباً، وهذا القول باطل، فالله تَعَالَى يقول: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١].

* * * * *

* قوله: «أو يكون خالق لشيء إلا هو رب العباد ورب أعمالهم، والمقدر لحركاتهم وأجالهم، الباعث الرسل إليهم لإقامة الحجة عليهم».

* الشرح:

قوله: «أو يكون» أي: تبارك وتعالى أن يكون أحد خالق غيره سبحانه الذي هو ربُّ العباد وربُّ أعمالهم، وقد علمنا مما سبق أن الله خالق للعباد، وخالق لأعمالهم.

واستدللنا على ذلك بقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿[الصافات: ٩٥-٩٦]. فهو الخالق لهم، والمقدر لحركاتهم وأجالهم، وأن العباد صائرون إلى ما قدره لهم وعليهم. أما من الناحية الشرعية فقد أرسل إليهم الرسل، وأنزل إليهم الكتب؛ لإقامة الحجة عليهم، وبيان الحق لهم فمن تبع الرسل وأطاعهم فقد نجا، ومن خالفهم وعمل على غير ما جاءوا به فقد هلك.

* * * * *

* قوله: «ثم ختم الرسالة والندارة والنبوة بمحمد نبيه ﷺ فجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً».

* الشرح:

قال ﷺ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «مثلي ومثل الأنبياء قبلي؛ كمثل رجل بنى بنياناً فحسنه وجمله إلا موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون بذلك البناء، ويقولون: ما أجمله لو وضعت فيه تلك اللبنة؛ فأنا تلك اللبنة»^(١). أو كما قال ﷺ.

لقد مضت الرسالات في عمر البشرية، فأرسل الله رسلاً إلى أممهم فيهم من قص خبرهم، ومنهم من لم يقصص خبرهم قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَكَ

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بِشَايَةِ إِلَّا يَأْذَنُ اللَّهُ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ [غافر: ٧٨].

فنحن نؤمن بأن الله رسلاً قصّهم على نبيه عرّفنا أخبارهم، وأخبار أممهم، وما آل إليه أمرهم، وعرفنا بأسمائهم، ونعلم أن الله أرسل رسلاً طوى أخبارهم في علم الغيب، فلم يطلع عليها أحداً من خلقه؛ فلذلك كان خبرهم مكتوماً، وأمرهم غير معلوم.

وقد قال النبي ﷺ: «عرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رُفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فإذا هم موسى وقومه، ثم رفع لي سواد عظيم، فقبل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، ولا عذاب...» الحديث^(١).

أما أمة محمد ﷺ فقد جعلها الله آخر الأمم، وجعله هو خاتم الرسل وآخرهم، وجعل في علماء أمته مجددين، يجددون للناس ما اندثر من دينهم، وجعلهم بمنزلة الأنبياء في بني إسرائيل، وإن رسول الله ﷺ هو خاتم الرسل وأفضلهم، كما أن أولي العزم هم أفضل الرسل؛ فكذلك هو أفضل أولي العزم؛ فلهذا فهم جميعاً يترادّون الشفاعة، ويرون أن مقاماتهم أقل من أن تؤهلهم لذلك؛ ويكون الرسول ﷺ هو صاحب الشفاعة العظمى التي هي المقام المحمود، وهي الشفاعة في فصل القضاء، والشفاعة الثانية في استفتاح باب الجنة.

فضّله الله على غيره من الرسل، وأنزل عليه كتابه الحكيم، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: «ما من الأنبياء نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والمقصود بالذي أوتيته هو: القرآن ، فقد شرح رسول الله الدين، وبينه بسنته المكملة للقرآن والمفسرة له، ويتكون منها الصراط المستقيم الذي دعا الله عباده إليه بقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].



* قوله: «وأنزل عليه كتابه الحكيم، وشرح به دينه القويم، وهدى به الصراط المستقيم».

* الشرح:

أي: أن الله ﷻ حين أرسل نبيه محمداً ﷺ، وختم به الرسالات السماوية أنزل عليه كتابه الحكيم الذي هو القرآن، كتاب: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وهو كتاب عربي مبين، جمع الله فيه أخبار من مضى، ونبا ما يأتي، وضرب فيه الأمثال، وبيّن فيه الحرام والحلال، وقد بيّن النبي ﷺ ما أجمل من الأوامر في القرآن كالصلوات، وأوقاتها، وعدد ركعاتها، وفرضها ونفلها، وبين فيه الزكاة المفروضة وأنصباؤها.

فالسنة شارحة للقرآن، ومبينة له، ومفصلة لمجمله، ولم يتوف الله رسوله ﷺ حتى ترك أمته على محجة بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وأمرهم باتباع ما جاء به في قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢].

وقال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ١٨-١٩].

فالصراط المستقيم هو الدين الذي تركنا عليه بعد أن بينه بأقواله وأفعاله - صلوات الله وسلامه عليه - وقال: «قد تركتكم على بيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك»^(١).

فالزوغان عن دينه القويم هلكة لمن فعله، نعوذ بالله أن نزيغ بعد الاستقامة: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

يوم القيامة يتحول الصراط المستقيم الذي كان في الدنيا شيئاً معنويّاً، وهو الاستقامة على الحق الذي أتى به، فيتحول ذلك فيجعله صراطاً ممدوداً على جسر جهنم، من استقام على الصراط المعنوي في الدنيا، مر على الصراط الممدود على جسر جهنم بسهولة ويسر، من تَلَفَّتْ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، وأخذته بُنَيَاتُ الطَّرِيقِ، فإنه سينقطع به ذلك الجسر الذي هو ممدود على متن جهنم، وهو أحدُّ من السيف، وأدقُّ من الشعر، مزلة مزلة وعليه كلاليب تخطف الناس الذين لم يستقيموا عليه في الدنيا، وتلقيهم في نار جهنم، والعياذ بالله، اللهم إنا نسألك السلامة.

(١) رواه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد (١٦٦٩٢) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٣٧).

* وقوله: «وأن الساعة آتية لا ريب فيها، كما أخبر الله، وأن الله يبعث من يموت كما بدأهم يعودون».

* الشرح:

إن الساعة آتية لا ريب فيها كما أخبر الله، وأن الله يبعث من في القبور، والله تعالى يقول: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]. فالبعث كائن ولا بد إذا انقضت أيام الدنيا، وانقضت الخليقة التي أراد الله خلقها على هذه الأرض.

بعد ذلك ستكون النفخة التي يكون بها الصعق، ثم الموت، وقد قال النبي ﷺ: «لتقوم الساعة، والرجلان قد نشرا ثوبيهما يتبايعان فلا يتبعانه ولا يطويانه، ولتقوم الساعة والرجل يلوط حوض إبله فلا يسقي فيه، ولتقوم الساعة والرجل قد حلب لِقْحَتَهُ فلا يشربه»^(١).

وذلك أن النفخة في الصور تعاجلهم عن هذه الأمور كلها، وكل يموت في مكانه، وتموت الملائكة أيضًا حتى حملة العرش، وجبريل، وميكائيل، وإسرافيل الذي ينفخ في الصور، وملك الموت الذي يقبض الأرواح، ويأتي تأويل قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

ويبقى الكون مدة طويلة، الله أعلم بقدرها، ثم إذا أراد الله قيام الساعة أحيا الله إسرافيل -صاحب الصور- وجمع له الأرواح في فوهة الصور بعد أن يرسل مطرًا كمني الرجال أربعين يومًا، فينبت الناس في قبورهم وكل شيء يفتنى من الإنسان إلا عجب الذئب، فهو يركب منه، فإذا تكاملوا جمع الله الأرواح في فوهة الصور.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم يأمر إسرافيل فينفخ فيه، فتطير الأرواح إلى أجسادها، وكل روح تعرف جسدها أين هو فتأتي إليه، وتدخل فيه، ثم تنشق الأرض عنهم، فيقومون من قبورهم؛ ولهذا يقول النبي ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، ولا فخر، فأرفع رأسي فإذا موسى بن عمران باطش بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أجوزي بالصعقة أم كان ممن استثنى الله»^(١).

ثم ينادي مناد: يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم فيتبعون ذلك المنادي، والله ﷻ يقول: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۚ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۚ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ۚ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۚ فَهُمْ يَخْشَوْنَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرِ ۚ﴾ [القمر: ١-٨].

وقال الله ﷻ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا سَمْعَ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]. وإلى غير ذلك من الآيات الدالة على قيام الساعة.

فقيام الساعة أمر لابد منه، وحيثئذ يقفون موقفاً طويلاً تدنو منهم الشمس، ويعلوهم العرق، ويشتد الكرب من هول ذلك اليوم الذي وصفه الله ﷻ بقوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۚ﴾ [١٧] السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۚ

ثم إن الله ﷻ بعد زمن طويل يأمر بفصل القضاء بعد شفاعة نبينا محمد ﷺ، فينادي الله آدم: أن أخرج بعث النار من ذريتك، فيقول: من كم يا رب؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون^(٢). نسأل الله السلامة.

(١) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣٠)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

هذه هي الساعة، وهذه بعض صفاتها، وحيث يتفرق الناس، فريق في الجنة، وفريق في السعير، يتفرقون تفرقاً لا لقاء بعده، اللهم سلمنا فيمن تُسلم يا رب العالمين.

* * * * *

* قوله: «وأن الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات، وصفح لهم بالتوبة عن كبائر السيئات، وغفر لهم الصغائر باجتناّب الكبائر، وجعل من لم يتب من الكبائر صائراً إلى مشيئته حيث قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]».

* الشرح:

أراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ يبين ما فعله الله لعباده المؤمنين من مضاعفة الحسنات، حيث جعل الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، أما السيئة فهي بمثلها واحدة أو يعفو، ومن همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، ومن همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه شيئاً، وهذا من رحمة الله بعباده. وجعل الإتيان بالفرائض مع اجتناب الكبائر مكفراً للصغائر، وقد قال النبي ﷺ: «أُرأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً يغتسل منه كل يوم خمس مرات، أيبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء». قال: فإن مثل ذلكم كمثل الصلوات الخمس؛ يكفر الله بهن الخطايا^(١). لكن من عمل كبيرة من موجبات دخول النار، فسترها الله عليه، فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه، أما إن اقترف حداً وأقيم عليه، فإن الحد يكون كفارة له.

(١) أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد بين لنا ﷺ أنه يغفر جميع الذنوب ما عدا الشرك بالله، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

فأصحاب الكبائر مصيرهم إلى مشيئة الله ﷻ، أما من مات وهو يشرك بالله ﷻ فهو لا بد أن يكون من أهل النار، فالمشرك شركًا أكبر محرم عليه دخول الجنة، ومحتم عليه دخول النار، كما قال ﷺ على لسان عيسى عليه السلام: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. اللهم سلم سلم.



* قوله: «ومن عاقبه بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله به جنته، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] ويخرج منها بشفاعة النبي ﷺ من شفع له من أهل الكبائر من أمته».

* الشرح:

قوله: «ومن عاقبه بناره... إلخ. المقصود به أهل الكبائر من الموحدين، إذ إن أهل الكبائر من الموحدين تحت المشيئة، فالله ﷻ أخبر في كتابه أن اجتناب الكبائر موجب لمغفرة ما دونها، فقال -جل وعلا-: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وفي الحديث: «الصلاة إلى الصلاة، ورمضان إلى رمضان، والحج إلى

الحج، والعمرة إلى العمرة كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»^(١).
 هذه أدلة تدل على أن من اجتنب الكبائر أن الله يغفر له ما دونها بأدائه الفرائض،
 وما يتعلق بها كالطهارة، والمشي إلى المساجد، وانتظار الصلاة، وما أشبه ذلك.
 أما من لقي الله مصرًا على الكبائر، ومعه أصل الإيمان، وأصل التوحيد
 الذي يصح به الإسلام، فإن أمره إلى الله: إن شاء عفا عنه، وأدخله الجنة بدون
 عذاب، وإن شاء عاقبه في النار ليظهره من ذنوبه، ثم أخرجه منها وأدخله الجنة.
 وقد تواترت الأخبار عن النبي ﷺ أن أقوامًا من أمته يتساقطون من فوق
 الصراط، تخطفهم الكلاب المعلقة من فوقه فترميهم في نار جهنم، وأن النار
 تحرق منهم كل أجسادهم ما عدا مواضع السجود، فإذا شاء الله ﷻ أن يخرجهم
 منها أذن للشفعاء فيدخلون عليهم فيجدونهم قد صاروا حممًا، ولا يعرفونهم إلا
 بمواضع السجود، فيخرجونهم منها ويضعونهم على نهر الحياة - نهر في أفواه
 الجنة - فينبتون فيه كما تنبت الحبة في حميل السيل، وردت بذلك أحاديث كثيرة.
 وأن النبي ﷺ يشفع وسائر الأنبياء يشفعون، وكذلك الصديقون، والشهداء،
 والصالحون كلهم يشفعون، وأن الله يخرج من النار ثلاث حثيات بفضله، وأنه
 يخرج من النار أقوامًا لم يعملوا خيرًا قط، فيسكنهم جنته، ومع ذلك يبقى فيها
 فضل فيخلق الله أقوامًا ثم يسكنهم فيها.

وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة، وخالفت في ذلك الخوارج والمعتزلة

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣)، ولفظه: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر».

وأخرج البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩): «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

فأنكروا الشفاعة، وأنكروا خروج الموحدين من النار، وزعموا أن من دخل النار أنه لا يخرج منها، والذي أوقعهم في ذلك الجهل؛ حيث إنهم حملوا الآيات الواردة في الكفار على المسلمين الموحدين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]. وكقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠]. إلى غير ذلك من الآيات التي قصد بها الكفار؛ فأخطئوا في ذلك خطأ فاحشاً؛ ترتب عليها مخالفات في العقيدة، استحقوا فيها مقت الله وغضبه؛ لأنهم ردوا السنة بالكلية، أو ردوا ما عدا المتواتر من السنة كالمعتزلة.

والحقيقة أن ما أخبر عنه النبي ﷺ من أخبار فهي كائنة ولا بد، والله قد شهد لرسوله بأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وقال ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. وسواء في ذلك الأوامر والنواهي، أو الأخبار الغيبية، فكل ما أخبر عنه النبي ﷺ من المغيبات وجب الإيمان به، واعتقاد صدقه وأحقيقته.

والمهم أن الذي أوقعهم في ذلك هو تكذيبهم للسنة، فهلكوا بسبب تكذيبهم لسنة رسول الله ﷺ.



* قوله: «وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه، وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم».

* الشرح:

الجنة والنار أخبر الله ﷻ عنهما في كتابه؛ بل في جميع كتبه، وأبدى في ذلك وأعاد وأخبر أنه خلق الجنة نزلاً لأوليائه وأهل طاعته، أكرمهم فيها بما شاء من

الكرامات، وأنه خلق النار وأعدّها دار هوان ونكال لأعدائه قبل أن يخلق السموات والأرض.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَآ الصَّالُونَ الْمُكَذِبُونَ﴾ (٥١) ﴿لَا كُفُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ﴾ (٥٢) ﴿فَالْتَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ (٥٣) ﴿فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ (٥٤) ﴿فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَلِيمِ﴾ (٥٥) ﴿هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٦]. أي: هذه تكريمهم يوم القيامة، وضيافتهم؛ لأنهم كانوا على الكفر والتكذيب، حتّى نقلهم الله بالموت من دار الدنيا إلى دار البرزخ، وهكذا أعدّ الله لأهل كل عقيدة ما يستحقّون من الجزاء، فالجنة دار الراحة والحبور، والنعمة وقرة العين، والنار دار الجحيم والنكال، ونسأل الله العفو والعافية.



* قوله: «وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم».

* الشرح:

أي: أكرمهم في الجنة بالنظر إلى وجهه الكريم، والنظر إلى وجهه الكريم ثابت بالكتاب والسنة، فالأدلة من الكتاب هي قول الله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَّوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٢٢) ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. فالنصرة في الآية الأولى هي الرونق والحسن والنعيم، وأما في الآية الثانية فعدها بـ «إلى» والمراد به النظر إلى وجهه ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

ومن الأدلة على ذلك قول الله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. فقد فسرت الزيادة بأنها النظر إلى وجهه الكريم، هكذا فسر الآية بذلك جماعة من السلف، وأهل السنة يثبتون ذلك باتفاق منهم عليه.

أما الأدلة من السنة، ففي ذلك أحاديث منها:

حديث جرير بن عبد الله البجلي قال: «كنا عند رسول الله ﷺ في ليلة مقمرة، فقلنا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضامون^(١). - وفي رواية^(٢): هل تضارون- برؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قلنا: لا. قال: وهل تضامون- أو قال: تضارون- في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب؟ قلنا: لا. قال: فإنكم لا تضامون في رؤيته. - أو قال: لا تضارون- في رؤيته إلا كما لا تضارون في رؤيتهما». أو كما قال ﷺ.

وهناك أحاديث عن غير جرير فمنها حديث أبي هريرة^(٣) أورده ابن أبي عاصم في كتابه السنة، ومنها حديث أبي رزين -وهو لقيط بن عامر العقيلي- وحسنه الشيخ الألباني في تحقيقه لكتاب السنة^(٤).

* قوله: «وهي التي أهبط منها آدم نبيه وخليفته إلى أرضه لما سبق في سابق علمه».

* الشرح:

إن من أهل العلم من قال: إن الجنة التي كان فيها آدم هي الجنة المعروفة التي خلقها الله للمؤمنين.

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤).

(٢) عند البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢، ١٨٣).

(٣) هو في الصحيحين في مواضع التخريج السابق.

(٤) انظر: ظلال الجنة في تخريج السنة (١/٢٢٧، ٢٢٨) برقمي (٤٥٩، ٤٦٠).

ومن أهل العلم من قال: إنها جنة غيرها، والقول الأول هو الأصح؛ بدليل أن موسى عليه السلام لما لقي آدم وحاجّه بقوله: «أنت أبونا آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه؟ فما حملك أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ قال له آدم: أنت موسى الذي كلمك ربك من وراء حجاب، لم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه؟ وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فما وجدت ذلك في كتاب الله، أن ذلك كائن من قبل أن أُخلق؟ قال: نعم. قال: ففيم تلومني؟! في شيء قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلق السموات والأرض فحج آدم موسى -عليهما السلام-»^(١).

وهذا الدليل كافٍ في أن الجنة التي أهبط منها هي الجنة التي يدخل فيها المؤمنون بإقرار الله وَجَزَّاءٌ لِمُوسَى فِي قَوْلِهِ: «فَلِمَ أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسِكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟». فلو كان جنة غير الجنة المعروفة لما كانت لمحااجة موسى فائدة.



* قوله: «وخلق النار، وأعدّها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله، وجعلهم محجوبين عن رؤيته».

* الشرح:

ما ذكره صاحب العقيدة هنا قد وردت فيه آيات كثيرة تدل على خلود الكفار في النار، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ۝٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٩)، ومسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٦﴾ [فاطر: ٣٦-]

[٣٧].

وقال ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَازِنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٤٩-٥٢].

وقال ﷻ: ﴿وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧-٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنَالِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا رَبَّنَا ءَامِنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءً حَتَّىٰ أَنسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣-١١١]. إن هذه الآيات لأعظم دليل على ما ذكره المصنف من خلود أهل النار فيها، وأنهم كانوا محجوبين عن رؤيته في الآخرة.

* قوله: «وأن الله -تبارك وتعالى- يجيء يوم القيامة والملك صفًا صفًا لعرض الأمم وحسابهم وعقوبتها وثوابها».

* الشرح:

الدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]. فأهل السنة يؤمنون بأن الله يأتي يوم القيامة لمحاسبة عباده وجزائهم، إذ إن الله وَجَلَّ جَلَلُهُ يجمع الناس جميعًا: الإنس والجن في صعيد واحد ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي، وتدنو الشمس منهم، ويكونون في العرق على قدر أعمالهم، يقفون موقفًا طويلاً، وتنزل ملائكة السماء الدنيا، فتكون صفًا من ورائهم، وملائكة السماء الثانية فتكون صفًا، وملائكة السماء الثالثة، وهكذا تكون الملائكة صفوفًا من وراء الناس، فيقفون موقفًا طويلاً، ثم يفرعون، فيطلبون من يشفع لهم إلى ربهم، فيذهبون إلى آدم، فيقول: لست لها، اذهبوا إلى نوح، فيذهبون إلى نوح، فيقول: لست لها، اذهبوا إلى إبراهيم. فيذهبون إلى إبراهيم، فيقول: لست لها، اذهبوا إلى موسى. فيذهبون إلى موسى فيقول: لست لها، اذهبوا إلى عيسى. فيقول: لست لها، اذهبوا إلى محمد.

فإذا جاءوا إلى النبي ﷺ قال: «أنا لها، أنا لها، فيذهب إلى ربه، فيسجد بين يديه قدر جمعة، ويفتح الله عليه بمحمد يحمد به، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع. فحينئذ يرفع رأسه ويقول: ربي أمتي أمتي»^(١). فيأمر الله بفصل القضاء، ويجيء كما يشاء، وعلى الوجه اللائق بجلاله، قال تعالى:

(١) انظر: صحيح البخاري (٤٤٧٦، ٦٥٦٥، ٧٤١٠، ٧٤٤٠) ومواضع أخرى، وصحيح مسلم (١٩٣، ١٩٤، ١٩٥).

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بأنه يجيء كما يشاء، وحينئذ يحاسب الناس على أعمالهم، فتوضع الموازين، وتنشر الصحف، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ويؤمن أهل السنة بالموازين فتوزن الأعمال أي: توزن دواوين الأعمال، فدواوين الحسنات توضع في كفة، ودواوين السيئات توضع في كفة، ويوزن أيضًا الأشخاص؛ والدليل على ذلك قول النبي ﷺ: «يؤتى بالرجل السمين الأكل والشروب، فلا يزن عند الله جناح بعوضة»^(١).

ولما صعد عبد الله بن مسعود يجتني سواكًا، وجعل الصحابة ينظرون إلى دقة ساقه فيضحكون، فقال النبي ﷺ: «أتعجبون من دقة ساقه، أما إنهما في الميزان لأثقل من جبل أحد»^(٢).



(١) أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥)، بلفظ: «إنه ليأتي بالرجل العظيم السمين يوم القيامة،

لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

(٢) أخرجه أحمد (٣٩٨١)، وحسنه الألباني في الإرواء (١٠٤ / ١).

* قوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والآية بعدها: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣]. وفي هاتين الآيتين دليل على أن الأعمال توزن، أي: دواوين الأعمال كما في حديث البطاقة.

* قوله: «ويؤتون صحائفهم بأعمالهم، فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً، ومن أوتي كتابه وراء ظهره فأولئك يصلون سعيراً».

* الشرح:

للميزان كفتان: كفة للحسنات، وكفة للسيئات، وقد أخبرنا الله ﷻ بأن كل إنسان معه قرينان يكتبان أعماله، قال -جل وعلا-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا نُوَسِّسُ بِهِ نَفْسَهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦-١٨].

فإذا كان يوم القيامة نزل على الشخص الملكان الموكلان به، فصاحب الحسنات معه ديوان الحسنات، وصاحب السيئات معه ديوان السيئات، ثم توضع الدواوين بعد أن توضع الصحف، فالمؤمنون توضع صحائفهم في أيمنهم ومن أمامهم، والمجرمون توضع صحائفهم في شمائلهم، ومن وراء أظهرهم، وكل منهم يقرأ ما في صحيفته.

قال ﷻ: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِ طَائِفَةٌ، فِي عُنُقِهِ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ (١٣) أَقْرَأَ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

وهذه الدواوين توضع في كفتي الميزان، فمن رجحت حسناته على سيئاته كان من الناجين، ومن رجحت سيئاته على حسناته كان من الموبقين، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ

الْمُوزِنَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿[الأنبياء: ٤٧].

* قوله: «وأن الصراط حق يجوزه العباد بقدر أعمالهم، فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم، وقوم أوبقتهم فيها أعمالهم».

* الشرح:

الصراط: اسم للطريق الذي رسمه الله للناس في كتابه، وعلى لسان رسوله، وكذلك في الكتب الأولى، والأمم الأولى، وعلى السنة رسلهم، فالله ﷻ رسم لنا طريقاً مستقيماً، وأمرنا أن نسير عليه قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا أَمْرٌ أَعْبَادُهُ أَنْ يَدْعُوهُ بِالْهُدَايَةِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَقَالَ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-٣].

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ۝﴾ [النساء: ١٧٤] ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ، فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥]. إلى غير ذلك من الآيات.

والنبي ﷺ يقول حينما خط خطاً مستقيماً، وخط خطوطاً على جنبتيه، وقال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط خطوطاً عليها ستور

مرخاة، وعلى كل خط منها شيطان يدعو إليه...» الحديث^(١).

فهذا الصراط هو الذي أشار إليه بقوله: «تركتم على بيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك»^(٢).

فهو الطريق الواضح الذي رسمه ﷺ لأمته بأقواله، وأفعاله، وجهاده، فمن استقام على هذا الصراط فإنه سيمر على الصراط الأخروي؛ وذلك أن الصراط المعنوي في الدنيا جعله الله ﷻ صراطاً حسيّاً، ونصبه على نار جهنم، فلا يمكن لأحد أن يصل إلى الجنة إلا بعد المرور عليه.

وقال ﷻ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

وقد أخبر النبي ﷺ أن الصراط الأخروي: جسر ممدود على متن جهنم، أحدٌ من السيف، وأدقُّ من الشعر، وأن الناس يقطعونه بأعمالهم، فمن استقام على الصراط المعنوي في الدنيا أعانه الله ﷻ، وقطع ذلك الصراط.

وقد أخبر النبي ﷺ أن الناس يختلفون في السرعة عليه، فمنهم من يمر كالبرق، وكلمح البصر، وكالرياح، وكأجاويد الخيل، وكسعي الرجال، ومنهم من يمشي، ومنهم من يهرول، ومنهم من يكون له شمعة على ظفر إبهام قدمه اليمنى تشع تارة، فيتقدم، وتنطفئ فيقف، ومنهم من يزحف على بطنه تلفحه النار من هاهنا وتلفحه من هاهنا حتى يقطعها، كل هذا سيحصل.

وكثير من الناس يسقطون من فوقه، ومن فوقه كلاليب كشوك السعدان، غير

(١) أخرجه أحمد (١٤٨٥٣)، وابن ماجه (١١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وصححه لغيره الألباني في ظلال الجنة (١٦).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٥٤).

أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فتلقيهم في نار جهنم، وإنما يمر على الصراط أمة الإجابة الموحدون أما المشركون، والكفار، والمنافقون نفاقاً اعتقادياً فهم مع أنواع الكفار يساقون إلى النار سوقاً، ويدخلون من أبوابها كما قال الله **وَعَجَلًا** : ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٣-٤٤].

وقال **عليه السلام** : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُرَّارًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١-٧٢].

والمهم، أن الصراط إنما يمر عليه أمة الإجابة، أما الكفار الصرحاء، والمشركون شركاً أكبر، والملحدون، والمنافقون نفاقاً اعتقادياً، فإنهم يساقون إلى النار سوقاً، اللهم إنا نعوذ بك من أن نُضِلَّ أو نُضَلَّ، نعوذ بك من خسران الدنيا والآخرة، ونسألك الثبات على الحق كما وفقتنا إليه، نسألك أن تثبتنا عليه.



* قوله: «والإيمان بحوض رسول الله ﷺ ترده أمته لا يظماً من شرب منه، ويزاد عنه من بدل وغير».

* الشرح:

قد أخبر النبي ﷺ أن له حوضاً آتيته أكثر من عدد نجوم السماء، فقد روى ابن أبي عاصم في كتاب السنة، من طريق أبي بكر بن أبي شيبة، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر قال: قلت: «يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: والذي

نفسى بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء، وكواكبها في الليلة المظلمة المصحية؟ من شرب منه لم يظماً، عرضه مثل طوله، ما بين عُمان إلى أيلة؟ وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل»^(١).

وروى أيضاً بسنده إلى أبي الوازع، وهو: جابر بن عمرو، أنه سمع أبا برزة الأسلمي يقول: «ما بين ناحيتي حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء، مسيرة شهر، عرضه كطوله فيه ميزابان يشخبان من الجنة، من ورقٍ وذهب، أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، فيه أباريق عدد نجوم السماء»^(٢).

وروى من طريق أبي بكر بن أبي شيبة أيضاً، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «إن لي حوضاً طوله ما بين الكعبة إلى بيت المقدس أبيض من اللبن، أنيته عدد النجوم، وإني لأكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة»^(٣).

وأورد حديثاً عن حذيفة، قال: «حوض النبي ﷺ أبيض مثل اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأطيب ريحاً من المسك...» الحديث^(٤).

وروى من طريق ابن أبي شيبة، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أمامكم حوضاً كما ما بين جرباء وأذرح»^(٥).

وأخرج عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ويزيد بن الأخنس وحارثة: رجلٌ من

(١) السنة، لابن أبي عاصم (١٧/٢)، وصححه الألباني في ظلال الجنة (٧٢١).

(٢) السنة، لابن أبي عاصم (١٨/٢)، وقال الألباني في ظلال الجنة (٧٢٢): جيد.

(٣) السنة، لابن أبي عاصم (١٨/٢)، وصححه الألباني في ظلال الجنة (٧٢٣).

(٤) السنة، لابن أبي عاصم (١٩/٢)، وحسنه الألباني في ظلال الجنة (٧٢٤).

(٥) السنة، لابن أبي عاصم (٢٠/٢)، وصححه الألباني في ظلال الجنة (٧٢٦).

خزاعة، سمع النبي ﷺ يقول: «إن ما بين حوضي ما بين مكة وصنعاء»^(١).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»^(٢).

والمهم: أن حوض النبي ﷺ ثابت من أوجه صحيحة لا شك فيها، وأنه يشرب منه المؤمنون، ويذاد عنه أهل النفاق، وفي الحديث: «بينما أنا قائم على حوضي إذ أقبل رجال من أمتي أعرفهم، حتى إذا هممت أن أناولهم، خرج رجل من بيني وبينهم، وقال: هلم. فأقول: إلى أين؟ فيقول: إلى النار والله، فأقول: إنهم من أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فإنهم لم يزالوا منحرفين على أعقابهم منذ فارقتهم»^(٣).

وفي رواية: «إنهم بدلوا بعدك. فأقول: سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي»^(٤).



* قوله: «وأن الإيمان قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بزيادة الأعمال، وينقص بنقصها، فيكون فيها النقص وبها الزيادة، ولا يكمل قول الإيمان إلا بالعمل، ولا قول وعمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ونية، إلا بموافقة السنة».

* الشرح:

ما قاله القيرواني رَحِمَهُ اللهُ هو قول أهل السنة والجماعة: أن الإيمان يكون

(١) السنة، لابن أبي عاصم (٢/ ٢٣)، وصححه الألباني في ظلال الجنة (٧٣٠).

(٢) السنة، لابن أبي عاصم (٢/ ٢٤)، وصححه الألباني في ظلال الجنة (٧٣١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٨٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٨٤) من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ومسلم (٢٢٩٥) من حديث أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

بثلاثة أمور: عقيدة القلب، ونطق اللسان بما اعتقده القلب، وعمل الجوارح بما يقتضيه الإيمان، فلا يصح الإيمان إلا أن يكون هكذا.

وقد نعى الله ﷻ على المنافقين وعابهم وتوعدهم بالعذاب الأليم، إذ كانوا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فالله ﷻ يقول: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

وقد ذم الله المنافقين في سورة البقرة، وفي سورة الأحزاب، وأما سورة براءة فإنها تسمى: الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين، وكشفت عما كانوا يكتونونه، وكما أنه لا يكفي النطق باللسان مع عدم اعتقاد القلب فكذا لا يكفي التصديق بالقلب ما لم يصدق به اللسان والعمل، فقد عاب الله فرعون وقومه بأنهم جحدوا برسالة موسى كبراً وتعاضماً، مع أنهم استيقنوها بقلوبهم، فقال ﷻ عنهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]. إذن فلا بد من توافق القلب واللسان والعمل.

فأما القلب فوظيفته الاعتقاد والتصديق، وأما اللسان فوظيفته النطق بما يُطلب منه النطق به، وقد قال النبي ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه دخل الجنة»^(١).

فجعل استيقان القلب شرطاً في صحة النطق، كما أن النطق يجب أن يكون إعلاناً لما اعتقده القلب، كما سبق لنا أن الله ذم المنافقين بأنهم يقولون خلاف ما يعتقدون، فمن عرّف الإيمان بأنه: التصديق كمرجئة الجهمية، فتعريفه باطل، ومن عرّفه بأنه التصديق بالقلب والنطق باللسان.

(١) أخرجه مسلم (٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرج العمل كمرجئة الفقهاء فهو أيضًا تعريفه للإيمان غير صحيح، والمهم في الإيمان أن يتواطأ عليه القلب، واللسان، وعمل الجوارح بما تقتضيه تلك الشهادة - أي: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله - فمن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فلا بد أن يعمل بمقتضى هذه الشهادة، فيقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان، ويحج البيت، ويجتنب المحرمات من سفك الدماء المحرمة، وإزهاق الأرواح المحرمة، واستحلال الفروج المحرمة؛ فمن فعل ذلك فهو مسلم.

والمهم أن الإيمان هو ما يتواطأ عليه القلب واللسان، ولا بد أن يكون في عمله هذا موافقًا للسنة فمن عمل بخلاف السنة، بأن ابتدع في الدين بدعًا، فإن عمله لا يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا؛ أي: خالصًا لله، صوابًا على ما شرعه الله على لسان نبيه ﷺ.



* قوله: «وأنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة».

* الشرح:

التكفير بالذنب هو طريقة الخوارج والمعتزلة، أما المرجئة فإنهم يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، بعكس ما عليه الخوارج والمعتزلة، فالخوارج يكفرون بالكبيرة، ويحكمون على فاعلها بالتخليد في النار، والمعتزلة يوافقون الخوارج في أن صاحب الكبيرة يخلد في النار؛ ولكنهم يقولون: هو في الدنيا في منزلة بين المنزلتين - أي: لا مسلم ولا كافر -.

أما المرجئة فيقولون: إن الإيمان هو التصديق، وهو واحد لا يتفاوت، ولا يزيد، ولا ينقص، ويزعمون أن إيمان أفسق الناس هو كإيمان أبي بكر وعمر سواء، وهذا

قول باطل، وقد صرح القرآن بزيادة الإيمان، فقال ﷺ: ﴿وَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١].

وقال: ﴿لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وقال: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

وفي حديث حنظلة حينما مر على أبي بكر ﷺ فقال: «يا أبا بكر نافق حنظلة، قال: وما ذاك. قال: نكون عند النبي ﷺ فنسمع منه فيزداد إيماننا حتى تكون الجنة والنار كأنهما رأيي عين، فإذا رجعنا إلى أهلينا فعافسنا النساء، وباشرنا الضيعات، ولاعبنا الأولاد نقص إيماننا.

قال أبو بكر: والله إنا لنجد ذلك، فانطلقا إلى رسول الله ﷺ فقال حنظلة: نافق حنظلة يا رسول الله. قال: وما ذاك. قال: إنا نكون عندك فتصف لنا الجنة والنار حتى كأنهما رأيي عين، ثم نرجع إلى أهلنا ... -الحديث-.

فقال النبي ﷺ: لو أنكم تكونون على الحال التي تكونون عليها عندي دائماً، لصافحتكم الملائكة في طرقكم، وعلى فرشكم ولكن ساعة وساعة يا حنظلة^(١).

والمهم أن أهل السنة والجماعة لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنوب؛ لأن الله قال في المتقاتلين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال -لما قال قائل لمن شرب الخمر-: «لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به. قال له النبي ﷺ: لا تكونوا عوناً للشياطين على أخيك»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٠) من حديث حنظلة الأسدي ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٦٧٨١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فسماه أخا وقال ﷺ: ﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]. فسمى القاتل أخا للمقتول، فهذا يدل على أن المسلم لا يكفر بالذنب وإن كان كبيرة.

ومما يدل على تفاوت أهل الإيمان فيه أحاديث الشفاعة، وأحاديث الحوض، وأحاديث الصراط، إذ إن بعضهم يمر على الصراط كالبرق، وكلمح البصر، وكالريح، وكجري الخيل، وكسعي الرجال، ومنهم من يهرول، ومنهم من يمشي، ومنهم من يزحف على بطنه، ومنهم من يسقط في نار جهنم^(١).

هذا كله يدل على تفاوت الناس بالإيمان، وبالتفاوت بالإيمان تكون السرعة على الصراط، وعدمها، أو وضعفها، ويكون سقوط بعضهم في النار كل ذلك دالٌّ على التفاوت.

وكذلك أحاديث الشفاعة، وهي أحاديث كثيرة منها: «أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان، -أو قال: من خير-، أخرجوا من كان في قلبه مثقال نصف دينار من إيمان، -أو قال: من خير-، أخرجوا من كان في قلبه مثقال نواة من إيمان، -أو قال: من خير-، أخرجوا من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، -أو قال: من خير-، أخرجوا من كان في قلبه مثقال برة من إيمان، -أو قال: من خير-، أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، -أو قال: من خير-»^(٢). فهذا يدل على تفاوت أيضًا.

ومما يدل على تفاوت الإيمان: تفاوت المنازل في الجنة؛ وقد قال النبي ﷺ:

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) التخريج السابق نفسه.

«إن أهل الجنة ليتراءون أصحاب الغرف، كما تتراءون الكوكب الدرّي الغابر في الأفق الشرقي، أو الغربي، فقال الصحابة -رضوان الله عليهم-: تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم. فقال النبي ﷺ: بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(١).

ومما يدل على ذلك أن هؤلاء الذين يخرجون من النار يخرجون وقد صاروا حُمَمًا إلا مواضع السجود منهم، فإذا وضعوا على نهر الحياة نبتوا عليه، كما تنبت الحبة في حميل السيل، ثم إنهم يختمون بخواتم في رقابهم يعرفون بها، أنهم قد دخلوا النار، ويقال لهم الجهنميون، وهؤلاء يصيبون منازل متدنية بقدر ضعف أعمالهم، وضعف إيمانهم.

فهذه الأدلة كلها تدل على تفاوت الناس بالإيمان وأن أهله يتفاوتون فيه تفاوتًا عظيمًا، اللهم املاً قلوبنا إيمانًا بك، وتوكلًا عليك وإخلاصًا لك، ونصحًا لعبادك. وبالله التوفيق.



* قوله: «وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم الدين».

* الشرح:

هذا إخبار عن حال الناس في البرزخ، فأهل الشقاوة يعذبون، وأهل السعادة ينعمون، وقد دل على ذلك أحاديث كثيرة، ومنها حديث سمرة أن النبي ﷺ كان

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

يقول للناس: «من رأى منكم رؤيا البارحة، وأنه ذات يوم قال: أتاني آتيان من ربي، فقالا لي: انطلق فانطلقنا فمررنا على رجل مضطجع، ورجل قائم على رأسه بفهر، يثلغ رأسه به ثم يتدهده الحجر، فيذهب فيأخذه فلا يعود إلا وقد صح رأسه، فيثلغ به مرة أخرى فقلت: ما هذا؟ فقالا لي: انطلق انطلق، قال: فمررنا على رجل مضطجع، ورجل يشرشر وجهه ومنخره، وشقه إلى قفاه، ثم يعود إلى الجانب الآخر فلا ينتهي إلى الجانب الآخر إلا وقد صح الأول، فقلت: ما هذا؟ فقالا: انطلق انطلق، قال: فانطلقنا فإذا مثل التنور، فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا جاءهم اللهب ضوضوا - يعني: صاحوا - ... إلى آخر ما ذكر. وفي آخره أنهم قالوا له: إن الرجل الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بفهر فيتدهده الحجر، فيأخذه، ثم يعود فيثلغ رأسه مرة أخرى فذاك رجل آتاه الله القرآن فرفضه، وكان ينام عن الصلاة المكتوبة، وأما الرجل الذي رأيت يشرشر وجهه فذاك رجل كان يخرج من بيته فيكذب الكذبة، يتحدث بها عنه في الآفاق.

وأما الذين رأيتهم في التنور رجال ونساء عراة فيأتيهم لهب من أسفل منهم فأولئك هم الزناة والزواني، وأما الرجل الذي رأيت يسبح في نهر من دم فذاك أكل الربا» إلى آخر ما ذكر من الحديث وهو في صحيح البخاري^(١).

ومما يدل على أن أهل البرزخ إن كانوا من أهل السعادة ينعمون، وإن كانوا من أهل الشقاوة يعذبون قول الله ﷻ عن فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]. والأخبار في ذلك موجودة في بطون الكتب دالة على ما ذكر، وهذا اعتقاد أهل السنة والجماعة.

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٧) من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

* قوله: «وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ وَيَسْأَلُونَ».

* الشرح:

كما قال ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ومن هذه الأدلة على ذلك: حديث البراء بن عازب الطويل قال: «توفي رجل فحضرنا، وحضر النبي ﷺ، ولما يلحد قال: فجلس النبي ﷺ، وجلسنا حوله فقال النبي ﷺ: إذا كان العبد في إدبار من الدنيا، وإقبال على الآخرة، نزل عليه ملك الموت، فإن كان من أهل السعادة نزل ملائكة معهم حنوط من الجنة، وأكفان من الجنة، فجلسوا منه على مدِّ البصر، فيأتي ملك الموت فيجلس عند رأسه، ويقول: أيتها الروح الطيبة اخرجي إلى رَوْحٍ وريحان، وربٍّ غير غضبان، فتنسلُّ روحه من جسده كما تنسلُّ القطرة من فيِّ السقاء، فإذا أخذها جاءت تلك الملائكة فأخذوها منه، ولم يدعوها في يده طرفة عين...» وذكر الحديث «وأنهم يعرجون بروحه، وأنه تنبعث من روحه ريح طيبة كأطيب ما كانت، وأنه إذا كان كافرًا أو منافقًا نزلت ملائكة سود الوجوه معهم مسح من النار، وأكفان من النار...» وذكر الحديث.

وفيه: «أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا وَضِعَ فِي قَبْرِهِ أَتَاهُ مَلَكَانِ. فَقَالَا لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بَعَثَ فِيكُمْ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُثَبِّتُهُ اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوا: مَنْ رَبُّكَ؟ قَالَ: رَبِّي اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوا: مَا دِينُكَ؟ قَالَ: دِينِي الْإِسْلَامُ. فَإِذَا قَالُوا لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَعَثَ فِيكُمْ؟ قَالَ: هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، فَأَمَّا نَا بِهِ وَصَدَقْنَا، فَيَفْتَحُ لَهُ بَابَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَقَالُ لَهُ: هَذَا مَجْلِسُكَ مِنَ الْجَنَّةِ إِذْ كُنْتَ

مؤمنًا، ثم يفتحان له بابًا إلى النار فيقولان: كان هذا مجلسك من النار لو كفرت، فيقول: دعاني أبشر أهلي. فيقال له: نم نومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه.

وأما الكافر، أو المنافق فإنه إذا قيل له: من ربك؟ قال: ها ها لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، فإذا قيل له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ قال: ها ها لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، فيضرب بمطرقة لو ضرب بها جبل لصار ترابًا فيصيح صيحة يسمعها كل من خلق الله إلا الجن والإنس»^(١).



* قوله: «وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم، ولا يسقط شيء من ذلك عن علم ربهم».

* الشرح:

الأدلة على أن معنًا حفظة يكتبون أعمالنا قول الله ﷻ: ﴿وإن عليكم لحفظين

﴿١٠﴾ كراما كنيين ﴿١١﴾ يعلمون ما تفعلون﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقول الله ﷻ: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من

حبل الوريد ﴿١٦﴾ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴿١٧﴾ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب

عئيد﴾ [ق: ١٦-١٨].

وفي الحديث الصحيح: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار،

ويجتمعون في صلاة الفجر، وصلاة العصر، ملائكة الليل، وملائكة النهار، فإذا

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦).

صليت العصر عرج ملائكة النهار إلى ربهم وبقيت ملائكة الليل، فيقول الله - وهو أعلم - للذين عرجوا: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون...»^(١).

* * * * *

* قوله: «وأن خير القرون القرن الذين رأوا رسول الله ﷺ وآمنوا به، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون، أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي - رضي الله عنهم أجمعين -، وألا يذكر أحد من صحابة رسول الله ﷺ إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب».

* الشرح:

ما قاله مؤلف العقيدة في هذا المقطع هو عقيدة أهل السنة والجماعة، يرون أفضل القرون القرن الذي بعث فيهم رسول الله ﷺ وآمنوا به، وصحبوه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم لقوله ﷺ: «خير القرون قرني». والقرون: اسم جنس، ووصفُ قرنه بالخيرية فيها دالٌّ على أن أهل قرنه هم أفضل القرون السابقة واللاحقة، المتقدمة والمتأخرة.

فقد اختار الله لنبيه - صلوات الله وسلامه عليه - أفضل القرون، وبعثه فيهم لقوله ﷺ: «أفضل القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي بعد ذلك أقوام يحلفون ولا يستحلفون، وينذرون ولا يوفون،

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ويظهر فيهم السَّمَن»^(١).

وقد ورد هذا الحديث بالفاظ قريبة من هذا، وهو صحيح، إذن فالخيرية جعلت لقرنه، ثم القرن الذي يليه، ثم القرن الذي يليه، ونحن نحمد الله وَعَلَّاهُ أن جعلنا من أهل دينه، وجعلنا ممن عرف الحق لأهله كما علمنا رسول الله ﷺ أن الإلهية لا تنبغي إلا لله الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وهذا هو التوحيد، وأن المتابعة لا تنبغي إلا لنبي الهدى - صلوات الله وسلامه عليه - : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وأن صحابته - رضوان الله عليهم - هم الذين مثلوا الدين الحق بأفعالهم وواقعهم تطبيقاً للشرعة التي تلقوها منه ﷺ، فلذلك ينبغي أن نكون على طريقتهم: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

فأصحابه هم المؤمنون، وتوحيد الله وَعَلَّاهُ بالعبادة ومتابعة الرسول ﷺ فيما شرع وعلم به أمته هو المفترض، وهو الذي يجب اتباعه، وقد قال - صلوات الله وسلامه عليه - في حديث الافتراق: «وستفترق هذه الأمة على: ثلاث وسبعين أمة كلها في النهار إلا واحدة، ولما سئل عن الواحدة. قال: هم الذين على مثل ما أنا عليه وأصحابي»^(٢).

وقال ﷺ: «تركتم على بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك»^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٤٣).

(٣) مر تخريجه (ص ٥٤).

أما أفضل الصحابة، فأفضلهم وأفضل الأمة على الإطلاق: أبو بكر رضي الله عنه، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي - رضي الله عنهم أجمعين -، ثم الستة الباقون من العشرة، ثم من هاجر الهجرتين، ثم أصحاب بدر، ثم أصحاب الحديبية الذين بايعوا تحت الشجرة، ثم من أسلم وقاتل قبل الفتح، ثم من أسلم وقاتل بعد الفتح، ثم صغار الصحابة، ثم خير الأمة العلماء الذين حملوا هذا الدين إلينا حملوه من الصحابة، وأتباع الأتباع حملوه من الأتباع وهكذا.

وعقيدة أهل السنة والجماعة أنه لا يذكر أحد من الصحابة بسوء، وأن الواجب على المسلمين السكوت عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ ولهذا قال قائلهم: وما جرى بين أصحاب نسكتُ عنه وأجر الاجتهاد نثبتُ



* قوله: «والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم، وأتباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم والاستغفار لهم».

* الشرح:

يقول المؤلف رحمته الله: «والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم» هذه عقيدة أهل السنة والجماعة؛ امتثالاً لأمر الله وأمر رسوله، والله تعالى أمر المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، وطاعة أولي الأمر فقال - جل من قائل -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

فعطف الأمر بالطاعة في حق الرسول على حق الله، ثم قال: وأولي الأمر منكم، ولم يكرر الفعل؛ فدل ذلك على أن طاعة ولاة الأمور داخلية في طاعة الله وطاعة رسوله، فهم يطاعون فيما أمر الله به ورسوله، إذا أمروا بأمر الله، ونهوا عما

نهى الله عنه، فإن أمروا بخلاف ذلك فلا طاعة لهم في المعصية.
وقد قال النبي ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(١).
وقال -صلوات الله وسلامه عليه-: «إنما الطاعة في المعروف»^(٢). فحصر الطاعة في المعروف، ومفهوم هذا أنهم إن أمروا بغير المعروف لم يطاعوا فيه.
وقد وردت في السنة أحاديث كثيرة توجب بل تحتّم طاعة ولاية الأمر علماً بأن ولاية الأمر يفسر بولاية الأمر الذين هم أصحاب الولاية، ويفسر بالعلماء، وهؤلاء تجب طاعتهم كما قلنا، فولاية الأمر تجب طاعتهم فيما أمروا به مما يتعلق بالولاية ما لم يكن معصية لله.

والعلماء تجب طاعتهم فيما أفتوا به، وأخبروا به من أحكام الشرع؛ إذ إنهم العارفون بذلك، والعالمون به، والممارسون له، وقد قال ﷺ: «وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفٍّ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَنْفَقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» [التوبة: ١٢٢].

والله ﷻ يقول: «فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» [النحل: ٤٣]. واذم أولئك النفر الذين كان معهم رجل في السرية، أصابته شجرة فاحتلم، فقال لهم: هل تجدون لي رخصة أن أتيّم؟ قالوا: لا. فاغتسل فمات. وقد جاء في الحديث على فرض صحته أن النبي ﷺ قال: «قتلوه قتلهم الله، هلاًّ سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال...»^(٣).

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة (١٠ / ٤٤)، من حديث النّوّاس بن سميّان رضي الله عنه، وصححه الألباني في تخريج المشكاة (٣٦٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠) من حديث علي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٣٦)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٦٢).

وفي هذه الآيات والأحاديث دليل على وجوب الرجوع إلى أهل العلم في المسائل الدينية والأخذ بقولهم فيما أفتوا به.

والأحاديث الدالة على وجوب طاعة ولاية الأمر في الصحيحين، وفي أحدهما، وفي السنن الأربع، ومسنند أحمد، وغير ذلك، فمنها حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: «أمرني خليلي أن أسمع وأطيع، وإن كان عبداً حبشياً، كأن رأسه زبيبة»^(١).

ومنها: حديث عبادة بن الصامت قال: «دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وألاً ننزع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً معكم من الله فيه برهان»^(٢).

ومنها: حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «من كره من أميره شيئاً فليصبر عليه فإنه من خرج من السلطان قيد سبر، فمات إلا مات ميتة جاهلية»^(٣).

ومنها: حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق كلمتكم، فاضربوه بالسيف كائناً من كان»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٦٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل حبشي كأن رأسه زبيبة».

وأخرج مسلم (١٨٣٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: «إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع، وإن كان عبداً مجدع الأطراف».

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع (٣/ ١٤٨٠ ح ٦٠) (١٨٥٢)، من حديث عرفة رضي الله عنه، وقول الشيخ: من حديث أبي سعيد. لعله سبق لسان. قلت: هو في صحيح مسلم، باب: إذا بويع لخليفتين بلفظ: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما». رقم الحديث (١٨٥٣). [النجمي].

وفي هذا المعنى حديث عرفة الكلابي.

وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية»^(١).

وله حديث آخر بلفظ: «ستكون خلفاء فتكثر. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول»^(٢).

ومنها: حديث عبد الله بن عمر، أنه جاء إلى عبد الله بن مطيع يوم الحرة، فقال عبد الله ضعوا للشيخ وسادة. فقال عبد الله بن عمر: إني لم آت لأجلس، وإنما أتيت لأخبرك أن النبي ﷺ قال: «من فارق الجماعة لقي الله، ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»^(٣).

وفي حديث عبد الله بن عمرو الطويل: «من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر كائناً من كان»^(٤).

ومنها: حديث عوف بن مالك الأشجعي: «خيار أئمتكم الذين يحبونكم وتحبونهم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين يبغضونكم، وتبغضونهم، وتلعنونهم ويلعنونكم. قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة»^(٥). وحديث عن أم سلمة إلى غير ذلك من الأحاديث، علماً بأن هذه الأحاديث التي ذكرتها بعضها في الصحيحين، وبعضها في مسلم.

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٢).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٥١).

(٤) أخرجه مسلم (١٨٤٤).

(٥) أخرجه مسلم (١٨٥٥).

فهذه الأحاديث وأمثالها توجب على كل مسلم السمع والطاعة لولاة الأمور سواء كانوا مطيعين أو عصاة، بررة أو فجارًا، فلا يجوز الخروج عليهم، ولا يجوز منازعتهم؛ بل الواجب السمع والطاعة لهم.

ثم إن طاعتهم طاعة لله ﷻ، ولرسوله ﷺ؛ قال ﷺ: «من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله»^(١).

وفي رواية: «من أطاع الأمير»^(٢)، وهذه الرواية فائدتها أن هذه في الأمراء عامة، وليس ذلك خاصًا بالأمير الذي يؤمره النبي ﷺ، فهذه عقيدة أهل السنة والجماعة؛ بل ورد في حديث حذيفة بن اليمان: «اسمع وأطع للأمير، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك»^(٣).

ومن قدح في هذه الزيادة، وأراد أن يتعلل بذلك للتوصل للخروج على ولاة الأمر، فإنه ضالٌّ مضلٌّ؛ إذ إن هذه الزيادة إن ضعفت، فقد أفاد مفادها جميع الأحاديث التي سبق ذكرها؛ لذلك فإن هذه العقيدة هي عقيدة المسلمين، عقيدة أهل السنة والجماعة، ومن زعم أن الإمام إن فسق أو عصي يجوز الخروج عليه، فإن زعمه هذا باطل ترده هذه الأحاديث التي سبرناها، وهذا القول - قول من قال بجواز الخروج على الإمام الفاسق - قول ضعيف لبعض المخالفين للسنة - عفا الله عنا وعنهم -.



(١) أخرجه البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥).

(٢) التخريج السابق نفسه.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٤٧).

* قوله: «وَاتَّبَاعُ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَاقْتِفَاءُ آثَارِهِمْ، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ».

* الشرح:

ما قاله رَحِمَهُ اللهُ وَاجِبٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَاللهُ تَعَالَى قَالَ فِي سُورَةِ الْحَشْرِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

فَاتَّبَاعُ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَاجِبٌ عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَالْمُؤْمِنُونَ هُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ وَمَنْ كَانَ بَعْدَهُمْ عَلَىٰ عَقِيدَتِهِمْ، وَسَارَ سِيرَهُمْ، أَمَا مِنْ أَخَذَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ قَدْ اتَّخَذَ سَبِيلًا غَرِيبًا وَبَعِيدًا عَمَّا وَضَعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأُمَّتِهِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَرَكْتُمْ عَلَىٰ بَيْضَاءٍ لَيْلَهَا كُنْهَارُهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ»^(١).

فَأَخْبَرَ أَنَّ الْهَلَكَةَ فِي الزَّوْغَانِ مِنْهَا، أَيُّ: عَنْ طَرِيقَتِهِ الَّتِي رَسَمَهَا لِأُمَّتِهِ، وَعَاشَ عَلَيْهَا صَحَابَتُهُ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِينَ حَمَلُوا شَرِيعَتَهُ ﷺ مِنْ كِتَابٍ وَسُنَّةٍ، وَفِي حَدِيثِ الْإِفْتِرَاقِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً. قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»^(٢).

وَعَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَنَّهُ قَالَ: «اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كَفَيْتُمْ»^(٣).

(١) مر تخريجه (ص ٥٤).

(٢) مر تخريجه (ص ٨٢).

(٣) أخرجه الدارمي (٢٠٥) من قول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وختم مؤلف هذه العقيدة كتابه، أو بالأحرى عقيدته بهذه الجملة:
 * «وترك المراء والجدال في الدين، وترك كل ما أحدثه المحدثون».

* الشرح:

فالجدال منهى عنه وبالأخص الجدال في القرآن، والجدال في الآثار التي جاءت
 عن النبي ﷺ، فما جاء في القرآن يجب أن تؤمن به وتنبهه، وما صح من السنة
 كذلك يجب أن تؤمن به وتنبهه، إذ هما المصدران اللذان قرر الله بهما شريعة عبده
 ونبيه محمد ﷺ، فالقرآن هو أصل التشريع، والسنة مبيّنة ومفسرة له، قال تعالى:
 ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

* * * * *

* قوله: «وترك ما أحدثه المحدثون».

أي: أن الواجب على كل طالب علم، بل على كل مسلم: أن يتبع الآثار الثابتة
 عن النبي ﷺ وعن السلف الصالح التي ثبتت من أقوالهم وأفعالهم إذ إنهم مثلوا
 الشريعة، وترجموها ترجمة واقعية، لذلك يجب أن نترك المحدثات، وأن نتبع
 كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلى فهم السلف الصالح، ونتبرأ من كل ما خالف ذلك.
 وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه وذريته وسلم تسليمًا كثيرًا.
 وأقول رحم الله المؤلف لقد نصح وبلغ وعلم وبيّن، وإن الواجب متابعتها
 على ذلك؛ لأن ذلك هو الحق فيما نعتقده -وبالله تعالى التوفيق-.

* * * * *

الفهم

فهرس الموضوعات

- ترجمة مختصرة لابن أبي زيد القيرواني ٥
- نص مقدمة مؤلف الرسالة رَحِمَهُ اللهُ ٨
- نظم مقدمة الرسالة للشيخ أحمد بن مشرف الأحسائي المالكي ١٤
- شرح مقدمة مؤلف الرسالة ٢٠
- قوله: «باب: ما تنطق به الألسنة وتعتقد الأفئدة» ٢٩
- قوله: «لا شبه له، ولا نظير له، ولا ولد له» ٣٠
- قوله: «ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء» ٣٠
- قوله: «ولا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون» ٣١
- قوله: «العالم الخبير المدبر القدير السميع البصير العلي الكبير» ٣٢
- قوله: «وأنه فوق عرشه المجيد بذاته وهو في كل مكان بعلمه» ٣٣
- قوله: «خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه» ٣٤
- قوله: «على العرش استوى، وعلى الملك احتوى» ٣٤
- قوله: «وله الأسماء الحسنى» ٣٦
- قوله: «والصفات العلا» ٣٧
- قوله: «لم يزل بجميع صفاته وأسمائه» ٣٨

- قوله: «كلم الله موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته...» ٣٩
- قوله: «وتجلى للجبل فصار دكاً من جلاله» ٤١
- قوله: «والإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره» ٤٢
- قوله: «علم كل شيء قبل كونه فجرى على قدره» ٤٦
- قوله: «يضل من يشاء فيخذله بعدله ويهدي من يشاء فيوفقه بفضل» ٤٨
- قوله: «تعالى الله أن يكون في ملكه ما لا يريد» ٥٠
- قوله: «أو يكون خالق لشيء إلا هو رب العباد ورب أعمالهم» ٥٠
- قوله: «ثم ختم الرسالة والندارة والنبوة بمحمد نبيه ﷺ» ٥١
- قوله: «وأنزل عليه كتابه الحكيم، وشرح به دينه القويم» ٥٣
- قوله: «وأن الساعة آتية لا ريب فيها، كما أخبر الله» ٥٥
- قوله: «وأن الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات» ٥٧
- قوله: «ومن عاقبه بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله به جنته...» ٥٨
- قوله: «وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأولياءه...» ٦٠
- قوله: «وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم» ٦١
- قوله: «وهي التي أهبط منها آدم نبيه وخليفته إلى أرضه» ٦٢
- قوله: «وخلق النار، وأعدها دار خلود لمن كفر به وألحد...» ٦٣
- قوله: «وأن الله يجيء يوم القيامة والملك صفًا صفًا» ٦٥
- قوله: «...الأعمال توزن...» ٦٧
- قوله: «وأن الصراط حق يجوزه العباد بقدر أعمالهم» ٦٨
- قوله: «والإيمان بحوض رسول الله ﷺ ترده أمته» ٧٠

- قوله: «وأن الإيمان قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح...» ٧٢ ...
- قوله: «وأنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة» ٧٤
- قوله: «وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وأرواح أهل السعادة باقية» ٧٧
- قوله: «وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم ويسألون» ٧٩
- قوله: «وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم» ٨٠
- قوله: «وأن خير القرون القرن الذين رأوا رسول الله ﷺ وآمنوا به...» ٨١
- قوله: «والطاعة لأئمة المسلمين من ولاية أمورهم وعلمائهم» ٨٣
- قوله: «وأتباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم» ٨٨
- قوله: «ترك المراء والجدال في الدين، وترك كل ما أحدثه المحدثون» ٨٩
- الفهرس ٩٣

نَائِلُ سِرِّ الْأَحْكَامِ

عَلَى مَا صَحَّ عَنْ خَيْرِ الْأَتَامِ

بِشَرْحِ أَجَادِيسِ عُمْدَةِ الْأَحْكَامِ

تَأَلَّفَ

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ

أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّجَّاشِيِّ

عَلَوَ عَلَى الْجُزْءِ الْأَوَّلِ الْإِمَامِ الْعَلَّامَةِ الْمُجَدِّدِ

مُحَمَّدِ نَاصِرِ الدِّينِ الْأَلْبَانِيِّ

الْمَدِينَةُ الْحَرَامَةُ

شرح
عقيدة ابن أبي عمير في زبدة القير والنجاسة



الإدارة: ١٧ ش صعب صالح - عين شمس - القاهرة
جوال: ٠١٨٨٨٨ ٤٠٨١ - ٠١٨٨٨٨ ٤٠٧٨
المكتبة: ٨١ ش الهدي الحمدي - أحمد عرابي - عين شمس

E-mail: daralmenhaj@hotmail.com
E-mail: daralminhaj@yahoo.com